ملخصات هـــــامة

لبعض الكتب الفكرية الحركية الأساسية

د هشام صقر

ملخصات هامــــة

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه وبعد،
فقد كنا نتدارس كتب محتوى المنهج التربوي كجزء من المنهج الشامل للإيمانيات والأنشطة والفكر والعمل والدعوة والأخوة والانضباط، وقد اقتضى ذلك التركيز على المفاهيم الأساسية لهذه الكتب ومناقشتها وتأصيلها مع أهميتها التطبيقية، وأحيانا صعوبتها العملية في الواقع المعاصر، وكيفية التغلب على ذلك، وذلك في عقدي السبعينيات والثمانينيات.
ثم تغيرت المناهج والأحوال منذ بدايات التسعينيات، وضعفت التربية الشاملة، وغلب التوجه السياسي، بتبعاته التربوية والتوثيقية السالبة، ثم تغيرت المناهج مرة أخرى إلى الأضعف، ثم توالت الأحداث والإشكاليات وزادت خاصة بعد الانقلاب المجرم الغاشم، وأصبح الإخوان في حالة من التيه والانقسام وانعدام الرؤية وتوقف العمل نحو الأهداف الكبرى، ولكن ليس هذا موضوعنا الآن.
ولقد اجتهدت في كتابة عدة كتب محاولا المشاركة في سد الثغرة الفكرية والتربوية الحادثة، كل منها يعالج زاوية أو نقصا، ثم شرح الله صدري بعد الاستخارة والاستشارة أن أقدم بعض الملخصات لبعض الكتب الهامة.
في هذا الكتاب ملخصات ومفاهيم أربعة كتب هي : هذا الدين، وخصائص التصور الإسلامي، ومعالم في الطريق، وهذه الثلاثة للأستاذ سيد رضي الله عنه، والرابع هو كتاب المنطلق للأستاذ الراشد.
وهذه الملخصات لا تغني عن قراءة الكتب الأصلية، لكنها تعين المربي والمتربين على مناقشة أهم القضايا والتركيز عليها، مع مناقشة تطبيقاتها العملية المعاصرة وخطورة المخالفة لهذا الضبط الشرعي الفكري الحركي.
إنه يجب على الجميع الآن، كل حسب خبرته وقدرته وظرفه، أن يشاركوا في الاستدراك الشرعي الفكري الحركي، وأن يستفرغوا وسعهم لبناء جيل جديد مجاهد يفهم دينه ودعوته، يعد نفسه للانضواء تحت الراية الجديدة الشاملة فكرا وتربية وإعدادا وتخطيطا وجهادا، وما ذلك على الله بعزيز.
اللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك، واختم لي ولكل الأحباب بخاتمة الشهادة في سبيلك، اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هذا الديـــــن

1- منـهج للبشر

إن البعض ينتظر من هذا الدين ـ ما دام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب، ودون أي اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أي مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم.
إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي حينما يتسلم مقاليدهم، ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة. وميزته الأساسية : انه لا يغفل لحظة، في أية خطة، وفي أية خطوة، عن فطرة الإنسان وحدود طاقته، وواقع حياته المادي أيضاً.
أليس هو من عند الله ؟ أليس الله قادرا على كل شيء ؟ فلماذا إذن يعمل هذا الدين فقط في حدود الطاقة البشرية المحدودة ؟ وتتأثر نتائج عمله بالضعف البشري ؟ بل لماذا يحتاج أصلا إلى الجهد البشري ؟ ثم لماذا لا ينتصر دائماً ؟، ولا ينتصر أصحابه دائماً ؟.

ولماذا؟ ـ في هذا المقام ـ سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد ..
ليس لأحد من خلق الله أن يسأله ـ سبحانه ـ لماذا شاء أن يخلق الإنسان بهذه الفطرة ؟، لماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي لحياة البشرية يتحقق عن طريق الجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، والواقع المادي لحياته؟، ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقائق ويعرفها، ويراها وهي تعمل في واقع الحياة البشرية، ويفسر أحداث التاريخ البشري على ضوئها.

هذا المنهج الإلهي يتحقق بان تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه بقدر طاقتها، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك ...
تجاهد الضعف البشري والهوى البشري في داخل النفوس، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى، وتبلغ بعد ذلك كله، من

تحقيق هذا المنهج، إلى الحد الذي تطيقه فطرة البشر، والذي يهيئه لهم واقعهم المادي، على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً، ولا تغفل واقعهم، ومقتضياته في سير وتتابع مراحل هذا المنهج الإلهي.
ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها أوعلى نفوس الناس معها تارة، وتنهزم في المعركة مع نفسها أو مع نفوس الناس معها تارة، بقدر ما تبذل من الجهد، وبقدر ما تتخذ من الوسائل المناسبة للزمان ولمقتضيات الأحوال.
وقبل كل شيء، بمقدار ما تمثل هي ذاتها من حقيقة هذا المنهج، ومن ترجمته ترجمة عملية في واقعها وسلوكها الذاتي.

ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في غزوة أحد، لا بالكلام ولا بالعتاب، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام، ودفعت ثمنها غالياً: هزيمة بعد نصر، وخسارة بعد غنم، وجراحاً لم تكد تدع أحداً معافى، وشهداء كراماً، وأغلى من ذلك كله وأشد وقعاً على الجماعة المسلمة كلها، جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى ثاب إليه المؤمنون من هزيمتهم وحيرتهم، وهم يتلقون هذا الدرس الشاق المرير.
إن حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان : مجاهدتهم بالقلب بكراهة باطلهم وجاهليتهم والعزم على نقلهم منها إلى الحق والإسلام، ومجاهدتهم باللسان بالتبليغ والبيان، ورفض باطلهم الزائف، وتقرير الحق الذي جاء به الإسلام، ومجاهدتهم باليد بالدفع والإزالة من طريق الهدى حين يعترضونه بالقوة الباغية والبطش الغشوم.

ذلك لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض).
ثم إن هذه المجاهدة ومن يصاحبها من الابتلاء، هي الوسيلة العملية لتمحيص الصفوف ـ بعد تمحيص النفوس ـ ولتنقية الجماعة من المعطلين والمعوقين والمرجفين، ومن ضعاف النفوس والقلوب، ومن المخادعين والمنافقين والمرائين (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم

المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا)، (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب).
لا يعني ذلك استقلال الإنسان نهائياً بهذا الأمر، وانقطاعه عن قدرة الله وتدبيره، ومدده وعونه وتوفيقه وتيسيره، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، فإرادة الله هي الفاعلة في النهاية، وبدونها لا يبلغ الإنسان بذاته شيئاً، ولكن هذه الإرادة تعين من يعرف طريقها، ويستمد عونها ويجاهد في الله ليبلغ رضاه.
وقدر الله - مع ذلك كله - هو الذي يحيط بالناس والأحداث، وهو الذي يتم وفقه ما يتم من ابتلاء، ومن خير يصيبه الناجحون في هذا الابتلاء.

2- منهج متفرد

ما ميزته إذن على المناهج البشرية، التي يضعها البشر لأنفسهم، ويبلغون منها ما يبلغه جهدهم، في حدود طاقتهم وواقعهم ؟
نحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام، فكل من ادعى لنفسه حق وضع منهج لحياة جماعة من الناس، فقد ادعى حق الألوهية عليهم، بادعائه أكبر خصائص الألوهية، وكل من أقره منهم على هذا الإدعاء فقد اتخذه إلهاً من دون الله، بالاعتراف له بأكبر خصائص الألوهية.

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأسباب تتعلق بالمنهج ذاته، فهو وحده المنهج الذي يحقق كرامة الإنسان، ويمنحه الحرية الحقيقية، ويطلقه من العبودية لغير الله، (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)، وفي الحديث الصحيح (... قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال : بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، واحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم)، قال السدى: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.
ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج، لأنه - بربانيته - هو المنهج الوحيد المبرأ من نتائج الهوى الإنساني، والضعف الإنساني، والرغبة الإنسانية في النفع الذاتي، وفي تحقيق ذلك النفع عن طريق التشريع، لشخص المشرع، أو لأسرته، أو لطبقته، أو لشعبه، أو لجنسه ...

قد يخطر لقائل أن يقول: وما هي الضمانات التي تجعل الجماعة المسلمة تحقق هذا العدل الذي يدعوها الله إليه ويأمرها به؟ **والضمانة الحقيقية للمنهج الإسلامي كله كامنة في ضمير المسلم، منبعثة من إيمانه، والجماعة المسلمة ضمانة حقيقية لتحقيق هذه التوجهات،** فهي تقوم على هذه العقيدة، وتأخذ نفسها بالتزام ما الزمها الله.

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج، لأنه وحده المنهج المبرأ من نتائج الجهل الإنساني والقصور الإنساني، براءته من نتائج الضعف البشري، فواضعه هو خالق هذا الكائن الإنساني، العليم بما يصلحه ويصلح له (ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض)، (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون).

ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه وحده المنهج الذي يقوم نظام الحياة البشرية فيه على أساس من التفسير الشامل للوجود، ولمكان الإنسان في هذا الوجود، ولغاية الوجود الإنساني.
والذي يراجع سجل الفلسفة التي حاولت تفسير الوجود، وتفسير مكان الإنسان فيه، وتفسير غاية الوجود الإنساني، يقع على ركام عجيب.

ونحن أخيراً ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه وحده المنهج الذي يتناسق مع نظام الكون كله، فلا ينفرد الإنسان بمنهج لا يتناسق مع ذلك النظام، والتناسق بين منهج حياة الإنسان ومنهج حياة الكون هو وحده الذي يكفل للإنسان التعأون مع القوى الكونية الهائلة، بدلاً من التصادم معها، وهو حين يصطدم معها يتمزق وينسحق، ولا يؤدي وظيفة الخلافة في الأرض، كما أرادها الله له. تحيا البشرية اليوم في عذاب نكد، على الرغم من جميع الانتصارات العلمية، وجميع التيسيرات الحضارية المادية.

3- منهج ميسّر

ثم يقول قائل: ولكن البشرية لم تصبر طويلاً على هذا المنهج السامق الفريد، فقد تفلتت منه الجماعة التي حققته في الأرض فترة من الزمان، وقد اتجهت

البشرية بعده إلى مناهج أخرى لا ترتفع إلى تلك القمة السامقة، ولكنها لا تكلف البشرية هذا الجهد الشاق، وإنما هو دعوة مثالية، إلى أفق غير مستطاع.
إنه ليس صحيحاً ابتداء أن هذا المنهج الإلهي، يكلف النفس البشرية جهداً أشق من أن تطيقه، أو أن تصبر طويلاً عليه، وعلى كل رفعته ونظافته وسموه وسموقه، هو نظام للإنسان، لهذا الإنسان الذي يعيش على سطح هذه الأرض، نظام يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان بكل مقوماتها، وخصائص تكوينه وتركيبه بكل مقتضياتها.
وحين تستقيم النفس مع فطرتها، وحين تلبي حاجاتها وأشواقها، وحين تطلق طاقاتها للعمل والبناء، فإنها تجري مع الحياة في يسر وطواعية.

إن أخلاقية الإسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة، كلا، إنها في صميمها قوة بناءة، وحركة دافعة إلى النمو المطرد، إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في هذا المنهج، فغاية الوجود الإنساني - كما يصورها الإسلام - هي الخلافة في الأرض، واستخدام ما سخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها في التعمير والبناء.
والجهاد لتحقيق الخير ومكافحة الشر صورة أخلاقية، تنطلق فيها طاقات أساسية في الكيان الإنساني، بينما هي في اعتبار الإسلام طاعة يتمثل فيها العنصر الأخلاقي في صورة رائعة.
وحتى حين نأخذ الصور الأخلاقية التي تبدو في ظاهرها قيوداً وكوابح، فإننا نجدها من الجانب الآخر تمثل صوراً من الانطلاق والتحرر والحركة (مثالان: الحرية الجنسية، الايثار).

إن الإسلام يعتبر الآثام والرذائل قيوداً وأغلالاً، تشد النفس الإنسانية وتثقلها وتهبط بها إلى الوحل، ويعد الانفلات من سيطرة الميول الهابطة تحرراً وانطلاقاً، وكل أخلاقيته تقوم على هذا الأساس.
والإسلام يحرص على قيادة المجتمع البشري، والهيمنة عليه، لينشيء فيه حالات وأوضاعاً تطلق الأفراد من الانحرافات الدخيلة على الفطرة، وتسمح للقوى الخيرة البانية في الفطرة بالظهور والتحرر والتفوق، وتزيل العوائق التي تحول بين الفطرة والانطلاق إلى الخير الذي فطرت عليه.
إن الإسلام نظام واقعي، ومن ثم فهو يفترض أن الناس الذين يعيشون بمنهجه، يعيشون في مجتمع يهيمن عليه الإسلام (تطبيقا + الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر)، فالأفراد الذين يعيشون بإسلامهم النظيف في المجتمع الجاهلي القذر، يعانون كثيرا، ويكاد يسحقهم سحقاً فعلا، ولكن هذا ليس هو الوضع الطبيعي الذي يفترضه الإسلام.
ومن هنا يحتم الإسلام أن تكون الهيمنة المطلقة على الجماعة البشرية لله ولمنهج الله، ويحرم ان تكون هذه الهيمنة المطلقة لأحد من خلق الله، ولمنهج من صنع غير الله.
كذلك يفترض الإسلام قيام مجتمع إسلامي يعيش في ظله الفرد المسلم بدينه هذا، وبخلقه الذي يفرضه هذا الدين، وبغير هذا الوسط تصبح حياة هذا الفرد متعذرة، أو شاقة على الأقل، **ومن هنا ينبغي أن يعلم من يريد ان يكون مسلماً، أنه لا يستطيع أن يزأول إسلامه إلا في وسط مسلم، يهيمن عليه الإسلام.**

ليس صحيحاً أن هذا المنهج يكلف البشرية جهداً أشق من الجهد الذي تبذله وهي تحيا في ظل المناهج الجاهلية، والذي يراجع سجل الآلام البشرية، الناشئة من مناهج الجاهلية، في تاريخها الطويل، لا يجرؤ على القول بان هذا المنهج الإلهي بكل تكاليفه، وبكل أخلاقيته، يكلف البشرية من الجهد مالا تكلفه لها المناهج الجاهلية.
وأيسر ما في هذا المنهج أنه يسير هيناً ليناً مع الفطرة، يوجهها من هنا، ويذودها من هناك، ويقومها حين تميل، ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها ولا يجهدها كذلك، إنه يصبر عليها صبر العارف البصير، الواثق من الغاية البعيدة المدى، الأكيدة التحقيق ...
وأخيراً فانه ليس صحيحاً أن هذا المنهج لم يعش طويلاً، كما يقول بعضهم في خبث وكيد، وبعضهم في حماسة وغيرة، فان البناء الروحي والاجتماعي والسياسي، الذي قام على أساس هذا المنهج السامق الفريد، والذي لم يستغرق بناؤه سوى نصف قرن في الحقيقة، قد ظل يقأوم جميع الآفات التي تسللت إليه، وجميع العدأوات التي سأورته، وجميع الهجمات الوحشية التي شنت عليه اكثر من ألف عام.
وقد ظلت هذه العوامل الرهيبة تسأوره وتهاجمه وتتسلل إلى قواعده في إصرار، ووراءها جميع قوى العالم الجاهلي، فلا تبلغ أن تحطمه من أساسه، ولكنها مع تطأول الزمان، ومع التجمع والترصد، ومع الإصرار والاستمرار، ظلت تنقص منه شيئاً فشيئاً، وتنحرف به عن أصوله شيئاً فشيئاً، حتى أثخنته فعلا، وهددته تهديدا خطيرا، **ومع هذا كله فإنها لم تستطع، حتى اللحظة،**

تشويه أصوله النظرية، فما تزال هذه الأصول قادرة على البعث الجديد، حين يعتنقها جيل جديد.

4- منهج مؤثر

على ان هذه الاشراقة اللامعة، بلغت من التأثير الدائم في واقع الحياة البشرية، قدر ما بلغته من البهاء والرفعة، ومن العظمة والكمال، وخلفت في واقع البشرية التاريخي من الاثار الباقية، ما قد يجعل الجيل الحاضر من هذه البشرية اليوم أقدر على المحاولة من سائر الأجيال التي خلت، بعد تلك الصفوة المختارة من رجال الصدر الأول، وذلك بمساعدة التيارات التي أطلقتها، والرواسب التي خلفتها، في التصورات والقيم، وفي النظم والأوضاع سواء.
لقد استطاعت تلك الفترة ان تنشيء في واقع الحياة البشرية عدداً كبيراً من الشخصيات النموذجية، تتمثل فيها الإنسانية العليا، بصورة غير مسبوقة ولا ملحوقة.
ولم تكن هذه الشخصيات النموذجية التي أخرجها المنهج الإلهي في تلك الفترة القصيرة آحاداً تعد على أصابع اليدين، إنما كانت حشداً كبيراً، يعجب الباحث كيف انبثقت هكذا سامقة ناضجة إلى هذا المستوى العجيب، في هذه الفترة القصيرة المحدودة.

ان هؤلاء الناس الذي حققوا ذلك المنهج الإلهي في حياتهم على هذا النحو العجيب، قد ظلوا، مع هذا، ناساً من البشر لم يخرجوا عن طبيعتهم، ولا عن فطرتهم، ولم يكبتوا طاقة واحدة من طاقاتهم البانية، ولم يكلفوا أنفسهم كذلك فوق طاقتهم، وهذه الحقيقة تعطي البشرية أملاً قوياً في إعادة المحاولة، وتجعل من واجبها، بل تجعل من حقها، أن تتطلع إلى هذه الصورة الوضيئة الممكنة، وأن تظل تتطلع.
ولقد ظل هذا المنهج، على كل ما ألم به على مدى الزمن من انحرافات ومن خصومات ومن هجمات، يبعث بنماذج من الرجال، فيها من ذلك الجيل الأول الفارع مشابه، وفيها منه آثاراً وانطباعات، وما يزال هذا المنهج قادراً في كل حين، على ان يبعث بهذه النماذج، كلما بذلت محاولة جدية في تطبيقه وتحكيمه في الحياة، على الرغم من جميع المؤثرات المضادة.

واستطاعت هذه الفترة ان تقرر في واقع الحياة البشرية مبادئ وتصورات، وقيما موازين، لم يسبق أن تقررت في تاريخها كله، بمثل هذا الوضوح، وبمثل هذا العمق، وبمثل هذا الشمول للنشاط الحيوي كله.
وقد تم هذا كله في وسط محلى وعالمي معاديين لمثل هذه المبادئ والتصورات، ولهذه القيم والموازين، معتمداً في نجاحه على رصيد الفطرة البشرية من الاستعداد للاستقامة على المنهج الإلهي.
والإسلام لا يغفل هذه المؤثرات ولا يهمل آثارها في الحياة البشرية، ولكنه لا يقف أمامها مستسلماً، باعتبارها أمراً واقعاً لا فكاك منه، بل يلجأ إلى استنقاذ رصيد الفطرة، وتجميعه، وتوجيهه، لتعديل الواقع، في رفق وتؤدة.
والبشرية اليوم قد تكون، في بعض الجوانب، أحسن حالاً وظروفاً منها يوم جاءها هذا المنهج، واحدث فيها في فترة قصيرة ذلك الانقلاب الشامل، وقد تكون أقدر على العمل بهذا المنهج، للأسباب التي سنبديها في فصل تال، وقد تكون طاقتها اليوم على حمله اكبر، اذا انتفضت الفطرة وتجمعت وعملت.

وهذا الذي حدث لم يتم بمعجزة خارقة لا تتكرر، ولكنه تحقق - وفق سنة الله الدائمة - بجهد بشري، وفي حدود الطاقة البشرية، فدلت هذه السابقة على إمكان تكرار هذه الظاهرة.
وقد استقرت في حياة البشرية من وراء هذه التأثيرات الواقعية مبادئ وقيم، ونظريات وأوضاع، قد تجهل البشرية اليوم مصدرها الأصيل، وقد تردها إلى مصادر أخرى غير ذلك المنهج المؤثر، ولكنه ليس من المتعذر معرفة اصلها الأول، والرجوع بها إلى فعل المنهج الإلهي، وآثاره في الحياة البشرية.
البشرية اليوم اقرب - بصفة عامة - إلى تفهم هذا المنهج، وأقدر كذلك على حمله، ولديها منه رصيد واقعي، خلفته موجة المد الأول، لم يكن لديها يوم جاءها أول مرة، ولديها كذلك رصيد من تجاربها الخاصة، في فترة التيه والشرود عن هذا المنهج، وما أصبحت تعانيه اليوم من أثار هذا التيه وهذا الشرود - مما سبقت الإشارة إليه باختصار- فهذه وتلك قد تكون من العوامل المساعدة على تقبل المنهج الإلهي، والصبر عليه في الجولة القادمة بإذن الله.

5- رصيد الفطرة

كانت المسافة بين الإسلام - يوم جاء - وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الكرة الأرضية، مسافة هائلة سحيقة، وكانت النقلة التي يريدهم عليها بعيدة بعيدة، وكانت تسند الواقع أحقاب من التاريخ، وأشتات من المصالح، وألوان من القوى، **وتقف كلها سداً في وجه هذا الدين الجديد، الذي لا يكتفي بتغيير العقائد والتصورات، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد، والأخلاق والمشاعر، إنما يريد كذلك، ويصر، على ان يغير الأنظمة والأوضاع، والشرائع والقوانين، وتوزيع الأموال والأرزاق، كما يصر على انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية، ليردها إلى الله وإلى الإسلام.**
ولكن هذا الواقع الهائل الضخم، سرعان ما تزحزح عن مكانه، ليخليه للوافد الجديد، وسرعان ما تسلم القائد الجديد مقادة البشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور، ويقودها بشريعة الله، تحت راية الإسلام.
كيف وقع هذا الذي يبدو مستحيلاً في تقدير من يبهرهم الواقع ويسحقهم ثقله، وهم يزنون الأمور والأوضاع، كيف استطاع رجل واحد هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أن يقف وحده في وجه الدنيا كلها؟.

انه لم يتملق عقائدهم وتصوراتهم، ولم يداهن مشاعرهم وعواطفهم، ولم يهادن آلهتهم وقيادتهم، لم يتمسكن حتى يتمكن، (قل يا أيها الكافرون ....)، فلم يكتف بان يعلن لهم افتراق دينه عن دينهم، وعبادته عن عبادتهم، ومفاصلتهم في هذا مفاصلة كاملة لا لقاء فيها، بل أمر كذلك ان ييئسهم من إمكان هذا اللقاء في المستقبل.
وهو كذلك لم يبهرهم بادعاء ان له سلطاناً سرياً، ولا مزايا غير بشرية، ولا موارد سرية، ولم يوزع الوعود بالمناصب والمغانم لمن يتبعونه، حين ينتصر على مخالفيه، أعلن ـ صلى الله عليه وسلم ـ انه لا يعمل في هذا الحقل بخارقة، ولم يستجب ـ مرة واحدة ـ لطلبهم للخوارق، إنما وقع الذي وقع وفق سنة دائمة تتكرر كلما أخذ الناس بها واستجابوا إليها.
لقد وقع الذي وقع من غلبة هذا المنهج، لأنه تعامل، من وراء الواقع الظاهري، مع رصيد الفطرة المكنون، وهو رصيد ضخم هائل، لا يغلبه هذا الركام الظاهري، حين يستنقذ ويجمع ويوجَّه، ويطلق في اتجاه مرسوم.

كانت المعتقدات الفاسدة والمحرفة ترين على ضمير البشرية، وكانت الآلهة الزائفة تزحم فناء الكعبة كما تزحم تصورات الناس وعقولهم وقلوبهم، وكانت المصالح القبلية والاقتصادية تقوم على كواهل هذه الآلهة الزائفة، وما وراءها من سدانة وكهانة، ومن أوضاع باطلة في حياة الناس.
وجاء الإسلام يواجه هذا الواقع كله بلا اله إلا الله، ويخاطب الفطرة التي لا تعرف لها إلهاً إلا الله، ويعرف الناس بربهم الحق، وخصائصه وصفاته التي تعرفها فطرتهم من تحت الأنقاض والركام، (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض)، (قل انى نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذن وما انا من المهتدين).
واستمعت الفطرة الى الصوت القديم،الذي يخاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل،في التيه العريض، وثابت الى الهها الواحد، وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل.

وعندما ثاب الناس الى إله واحد، امتنع ان يعبد الناس الناس، ووقف الجميع رافعي الرؤوس امام بعضهم البعض، يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده، وانتهت اسطورة الدماء المتفاضلة، والأجناس المتفاضلة، ووراثة الشرف والحكم والسلطان، ولكن كيف وقع هذا ؟
لقد كان هناك واقع اجتماعي، وراءه مصالح طبقية وعنصرية، مادية ومعنوية، واقع سائد في الجزيرة العربية، وسائد في الأرض من حولها، واقع ليس محل اعتراض احد، لأن المنتفعين به لا يسأمونه، والرازحين تحته لا ينكرونه.
كانت قريش تسمى نفسها "الحمس" وتفرض لنفسها حقوقاً وتقاليد ليست لسائر العرب، وكانت الأرض كلها من حول الجزيرة تعج بالتفرقات القائمة على اختلاف الدماء والأجناس وتفاضلها، كان المجتمع الايراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون انه يجري في عروقهم دم الهي، وكان نظام الطبقات في الهند من اعنف وأبشع ما يصنع الانسان بالإنسان، اما الحضارة الرومانية الشهيرة فقامت على أساس الترف، الذي يوفره ثلاثة ارباع سكانها من العبيد، للربع الباقي من الاشراف، وعلى أساس التفرقة في نصوص القانون بين السادة والعبيد، وبين الطبقات الكريمة والوضيعة .....

وبينما كان هذا الواقع سائداً في الأرض كلها، كان الإسلام يخاطب الفطرة من تحت ركام الواقع، الفطرة التي تنكر هذا كله ولا تعرفه، **وكانت استجابة الفطرة لنداء الإسلام أقوى من هذا الواقع الثقيل،** (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر هو أنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم)، (كلكم لآدم وآدم من تراب، ان اكرمكم عند الله اتقاكم)، استمعت الفطرة الى النداء المستجاب، وأزاحت عنها ركام الواقع وانطلقت مع المنهج الإلهي، ووقع ما وقع وفق سنة الله المطردة، القابلة للوقوع في كل حين.

وكان النظام الربوي هو السائد في الجزيرة العربية، وعليه يقوم اقتصادها الأساسي، وكذلك كانت تقوم الحياة في المدينة، وأصحاب اقتصادها هم اليهود، والربا قاعدة اقتصاد اليهود، وكان هذا واقعا اقتصادياً تقوم عليه حياة البلاد.
ثم جاء الإسلام، جاء ينكر هذا الأساس الظالم الجارم، ويعرض بدله أساساً آخر: أساس الزكاة والقرض الحسن والتعأون والتكافل، (البقرة 274-281)، كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل الواقع، وتطهر المجتمع المسلم من تلك اللوثة الجاهلية، وكان ما كان.

ونكتفي في هذا الفصل بهذه الأمثلة الثلاثة من مغالبة الفطرة للواقع، وانتفاضها من تحت الركام والانقاض، وانتصارها على الواقع الخارجي الذي أنشأته الجاهليات، وهي تمثل واقع العقيدة والتصور، وواقع الأوضاع والتقاليد، وواقع الاقتصاد والتعامل، وهي اقوى ألوان الواقع الذي يراه من لا يدركون قوة العقيدة، وقوة الفطرة، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التي لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة. ان الإسلام لم يقف مستسلما عاجزاً مكتوف اليدين امام هذا الواقع ولكنه ألغاه، أو بدله، وأقام مكانه بناءه السامق الفريد، على أساسه القوي العميق، وما حدث مرة يمكن ان يحدث مرة أخرى.

6- رصيد التجربة

ولكن البشرية ـ بجملتها ـ لم تكن قد تهيأت بعد للاستقامة طويلاً على تلك القمة السامقة، التي تسنمتها تلك الجماعة المختارة على عين الله، فلما انساح الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها بتلك السرعة العجيبة التي لم يعرف لها التاريخ نظيراً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، **وأصبحت كثرة الأمة الإسلامية ليست**

هي التي تلقت تلك التربية الفريدة العميقة البطيئة التي تلقتها الجماعة المختارة، لما وقع هذا كله أخذ ضغط الرواسب الجاهلية في نفوس الجماهير الغفيرة يثقل ويجذب الجسم كله من تلك القمة السامقة، إلى الأرض المستوية.

ومن ثم استوى المجتمع المسلم ـ قرابة الف عام ـ لا على تلك القمة السامقة، ولكن في مستويات متفأوتة، كلها أرفع من مستويات المجتمعات الأخرى في ارجاء الأرض، وذلك مع استمداد تلك المجتمعات من ذلك المجتمع الرفيع، كما شهد التاريخ المنصف، وما أقل التاريخ المنصف.
تلك الوثبة الكبرى الفريدة في تاريخ البشرية، وهذه الألف عام من المستويات الرفيعة، لم تذهب كلها سدى، ولم تتبدد من عالم الحياة ضياعاً، ولم تترك البشرية بعدها كما تسلمتها من قبل.
فالبشرية وحده متماسكة على مدار الزمان، وجسم البشرية جسم حي، ينتفع بزاد التجارب، ويدخر رصيد المعرفة، ومهما تجمع فوقه ركام الجاهلية التي ارتدت اليها البشرية، ومهما ران عليها العمى والظلام، فان الرصيد باق مكنون، بل هو سار في الجسم على العموم.
الدعوة الى الإسلام تجد اليوم الى جانب رصيد الفطرة المكنون، رصيد الموجة الأولى لهذا المنهج الإلهي في حياة البشرية جمعاء (من آمن بالإسلام، ومن دخل في حكم الإسلام، ومن تأثر على البعد بالمد الإسلامي العريض)، كما تجد رصيد التجارب البشرية المريرة، التي عانتها في التيه، حين بعدت عن الله، وعانت في ذلك التيه مرارة الحياة.

والمبادئ والتصورات، والقيم والموازين، والنظم والأوضاع، التي واجه بها الإسلام البشرية أول مرة وليس معه الا رصيد الفطرة فأنكرتها اشد الانكار، وتنكرت لها كل التنكر، وقأومتها كل المقاومة، قد استقرت في حياة جماعة من البشر ـ وهي في صورتها الكاملة ـ فترة من الزمان، ثم استقرت في حياة العالم الإسلامي العريض ـ في مستويات متفأوتة ـ فترة طويلة أخرى، ثم عرفت في حياة الجماعة البشرية كلها تقريباً، خلاف نيف وثلاثمئة وألف عام.
عرفت على الأقل دراسة ورؤية وفرجة، ان لم تعرف مزأولة وعملاً وتجربة، ومن ثم لم تعد غريبة ـ على البشرية- كما كانت يوم جاءها بها الإسلام أول مرة، ولم تعد منكرة في حسها وعرفها كما كانت يومذاك.

حقيقة ان البشرية لم تتذوقها قط، كما تذوقتها الجماعة المختارة، وفي تلك الفترة الفريدة، ولكن البشرية بجملتها - من الناحية التصورية الفكرية - قد تكون اقرب الى ادراك طبيعة ذلك المنهج، وأقدر على حمله كذلك - منها يوم جاءها أول مرة، غريباً عليها كل الغرابة.

نكتفي بذكر القليل من الأمثلة دون الاحاطة بها، وذلك لاعتبارين هامين : **أولهما**: طبيعة هذا البحث المجمل المختصر، الذي لا يزيد على ان يكون مجرد اشارات دالة الى عناصر الموضوع الكبير الذي يتناوله موضوع "هذا الدين"، **وثانيهما**: أن الخطوط العريضة التي تركتها موجة المد الطويلة لهذا المنهج، في حياة البشرية كلها، وفي انحاء الأرض جميعاً، اكثر عدداً، وأضخم أثراً، وأوسع مساحة، من أن يحيط بها كاتب واحد، في بحث واحد، وفي عصر واحد.
وانه ليمكن القول - على وجه الاجمال- أن هذه الظاهرة الكونية، وهي ظاهرة هذا الدين، لم تدع جانباً واحداً من حياة البشرية منذ ذلك التاريخ، الا وتجلت فيه، وتركت فيه تأثيراً تتفأوت درجاته، ولكنه واقع لا شك فيه.
إن حركة الإصلاح الديني، التي قام بها مارتن لوثر وكالفن في أوربا، وحركة الإحياء التي تقتات منها أوربا حتى اليوم، وحركة تحطيم النظام الاقطاعي في أوربا، والانطلاق من حكم الأشراف، وحركة المسأواة واعلان حقوق الانسان التي تجلت في الماجنا كارتا في انجلترا والثورة الفرنسية في فرنسا، وحركة تدعو الى عدم الاعتراف امام القس، وحركة تدعو الى اعتبار الصور والتماثيل الدينية وثنية، وحركة المذهب التجريبي التي قام عليها مجد أوربا العلمي، وانبعثت منها الفتوحات العلمية الهائلة في العصر الحديث، وأمثالها من الحركات الكبرى، التي يحسبها الناس أصولاً في التطور التاريخي، كلها قد استمدت من ذلك المد الإسلامي الكبير، وتأثرت به تأثراً أساسياً عميقاً (تفصيل في الكتاب).

نحن نشهد البناء الحضاري الراهن، ويخيل إلينا- في سذاجة وغفلة - أنه لا نصيب لنا فيه، ولا أثر لنا في نشأته، وأنه شيء أضخم منا ومن تاريخنا (الذي نجهله مع الأسف الشديد)، ثم نتلقاه من أفواه أعدائنا، الذين لا هم لهم الا ان يملأوا قلوبنا باليأس من امكان الحياة الإسلامية، وفق المنهج الإسلامي، وهم أصحاب مصلحة في هذا اليأس، لأنه يؤمنهم من الكرة عليهم.

7- خطوط مستقرة

عندما انحسرت موجة المد الإسلامي العالية عن هذه الأرض، وحينما استردت الجاهلية زمام القيادة، لم ترتد حياة البشرية تماماً إلى أوضاعها المتخلفة في الجاهلية الأولى، لقد كان الإسلام هناك، حتى وهو يتراجع عن مكان الصدارة في الأرض، وكانت هنالك من ورائه خطوط عريضة، ومبادئ ضخمة، قد استقرت في حياة البشرية، وصارت مألوفة للناس.

إنسانية واحدة : من العصبية القبلية، بل عصبية العشيرة، بل عصبية البيت، التي كانت تسود الجزيرة العربية، ومن عصبية البلد، وعصبية الوطن، وعصبية اللون، وعصبية الجنس، التي كانت تسود وجه الأرض كله، جاء الإسلام ليقول للناس: إن هناك انسانية واحدة، ترجع إلى أصل واحد، وتتجه إلى إله واحد، (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير).

ولم تكن هذه مبادئ نظرية، ولكنها كانت أوضاعاً عملية، لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان، وذابت كلها في النظام الإسلامي، واستقر هذا الخط العريض في الأرض، بعد أن كان غريباً فيها أشد الغرابة، ومستنكراً فيها كل الاستنكار، وحتى بعد انحسار المد الإسلامي لم تستطع البشرية ان تتنكر له كل التنكر، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب ...

لقد انحسر المد الإسلامي الأول، ولكنه ترك للمد التالي رصيد الفطرة ورصيده الذاتي، لتستمد منه الجولة القادمة، والبشرية أكثر إدراكاً، وأكثر استعداداً، وقد زالت عنها دهشة المفاجأة بهذا الخط الجديد.

انسانية كريمة : وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة، وعلى بيوت خاصة، وعلى مقامات معروفة، أما غثاء الجماهير فلا وزن له ولا قيمة، ولا كرامة.

وقال الإسلام كلمته المدوية: إن كرامة الانسان مستمدة من إنسانيته ذاتها لا من أي عرض آخر كالجنس، أو اللون، أو الطبقة، أو الثروة، أو المنصب، إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة، (ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً).

ولم تكن هذه مبادئ نظرية، إنما كانت واقعاً عملياً، تمثل في حياة الجماعة المسلمة، وانساحت به في أرجاء الأرض، فعلمته للناس، وأقرته في أوضاع حياتهم كذلك، وعلمت جمهور الناس (ذلك الغثاء)، أنه كريم، وأن له حقوقاً، هي حقوق الانسان، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة، وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس.

وهكذا ينبغي أن نفهم، وأن ندرك عمق المد الإسلامي التحرري، فليست المسألة فقط أن عمر عادل، وأن عدله لا تتطأول إليه الأعناق في جميع الأزمان، ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر - المستمد من الإسلام ومنهجه ونظامه- قد انطلق في الأرض تياراً جارفاً محرراً مكرماً للإنسان.
هذا المستوى الرفيع لم ترتفع إليه الإنسانية قط، هذا صحيح، ولكن هذا الخط العريض الذي خطه الإسلام، في كرامة الانسان وحريته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه، قد ترك في حياة البشرية آثاراً لا شك فيها، وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشرية اليوم إلى إعلان "حقوق الانسان".
وحقيقة ان هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية، ولكن هذا الخط ما يزال قائماً في مدارك البشرية وتصوراتها، ولم يعد غريباً عليها كما كان يوم جاءها الإسلام، وهي اليوم أقدر على ادراكه وتصوره، حينما تخاطب به في الجولة القادمة بإذن الله.

<u>أمة واحدة</u> : وجاء الإسلام فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب، أو آصرة الجنس، أو آصرة الأرض، أو آصرة المصالح والمنافع القريبة، وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الانسان، وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير، قال: **إنه لا لون ولا جنس، ولا نسب ولا أرض، ولا مصالح ولا منافع، هي التي تجمع بين الناس أو تفرق، إنما هي العقيدة**، هي علاقتهم بربهم التي تحدد علاقتهم بعضهم ببعض، **إن آصرة التجمع هي العقيدة، لأن العقيدة هي أكرم خصائص الروح الانساني**، فأما إذا انبتت هذه الوشيجة فلا آصرة ولا تجمع ولا كيان، إن الانسانية يجب ان تتجمع على اكرم خصائصها، لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلأ والمرعى، أو من الحد والسياج.

إن هناك حزبين اثنين في الأرض كلها: حزب الله وحزب الشيطان، حزب الله الذي يقف تحت راية الله ويحمل شارته، وحزب الشيطان وهو يضم كل ملة وكل فريق وكل شعب وكل جنس وكل فرد لا يقف تحت راية الله.
والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة. وهي جنسيتها، فالآصرة فكرة تعمر القلب والعقل، وتصور يفسر الوجود والحياة، ويرتبط بالله، (إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون).
وفاضل الإسلام بين الناس بعضهم وبعض على أساس العقيدة، مهما تكن روابط النسب بينهم، ووشائج الجنس والأرض، (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)، **وجعل هنالك سبباً واحداً للقتال،** حيثما لا يكون بد من القتال، هو الجهاد في سبيل الله، وحدد هدف المؤمنين وهدف غير المؤمنين تحديداً حاسماً صريحاً (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً).
وكان غريباً على البشرية كلها في ذلك الزمان، ان يتجمع الناس على عقيدة، ولكن ها هي ذي البشرية في الأيام الحاضرة تستسيغها، حقيقة إنها لا تتجمع على عقيدة في الله، إنما تتجمع على مذهب في الاقتصاد أو الاجتماع (ذلك ان البشرية هابطة، الأعراض القريبة اكرم عليها من الحقيقة الكبيرة)، ولكنها على اية حال تدرك ان رابطة التجمع يمكن أن تكون عقيدة، يمكن أن تكون فكرة، يمكن أن تكون رابطة معنوية، وهذا تقدم على كل حال.

<u>ذمة وخلق</u> : **ولكن الإسلام حين جمع الناس على آصرة العقيدة، وجعلها هي قاعدة التجمع أو قاعدة التفرقة، لم يجعل الإكراه على العقيدة قاعدة الحركة فيه، ولا قاعدة التعامل، لقد فرض الله الجهاد على المؤمنين، لا ليكرهوا الناس على اعتناق الإسلام، ولكن ليقيموا في الأرض نظامه الشامخ العادل القويم،** (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم).

واعتبر الأرض التي يسيطر عليها النظام الإسلامي وتحكمها الشرعية الإسلامية هي "دار الإسلام"، سواء كان سكانها من معتنقي عقيدته كلهم، أو كان بعضهم من معتنقي الديانات الأخرى، واعتبر الأرض التي لا يسيطر عليها النظام الإسلامي ولا تحكمها الشريعة الإسلامية هي "دار الحرب" أياً كان سكانها، ولم يترك الأمر لشريعة الغاب والناب في العلاقات بين دار الحرب ودار الإسلام، بل نظم هذه العلاقات تنظيماً دقيقاً، يحكمه الخلق والنظافة والاستقامة (إما ان تكون على عهد وميثاق مع دار الحرب، وإما أن تكون هناك موادعة، وإما ان تكون هي الحرب، وللحرب قيود وضمانات)، فان جنحوا للسلم مؤثرين المعاهدة والجزية والرضى بالنظام الإسلامي، مع حريتهم في اختيار العقيدة، فلهم ذلك، وأكد على الوفاء بالعهد، مبطلاً حجة "مصلحة الدولة" فإنها لا تجيز نقض العهود، فإذا كانت الحرب فهي الحرب التي لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيها صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولا يحرق فيها زرع، ولا يتلف فيه ضرع، ولا يمثل فيها بانسان، ولا تصيب إلا المقاتلين الذي يحملون السلاح في وجه المسلمين.

ولست انوي هنا استقصاء قوانين المعاملات بين دار الإسلام ودار الحرب، ولا بين المسلمين وسائر الأقوام، انما أريد ان أصل إلى الخط العريض الذي أقامه الإسلام في الأرض، للتعامل بين المعسكرات المختلفة، حيث لم يكن لذلك الخط وجود، هذا الخط الإسلامي العريض لم يذهب ولم يمح من واقع البشرية، فقد بدأ العالم في التعامل على أساس من القانون، وأخذ يخطو خطوات متوالية في "القانون الدولي"، وجعل يحاول اقامة هيئات دولية للتحكيم في القرن التاسع عشر، وظلت هذه التشكيلات تتأرجح بين النجاح والفشل حتى اللحظة الحاضرة، ومن ثم لم تعد الأنظمة التي جاء بها الإسلام غريبة غربتها يوم جاء.

حقيقة ان البشرية لم ترتفع قط الى المستوى الأخلاقي الذي بلغته الجماعة المسلمة في التعامل الواقعي، وحقيقة ان نكسات قوية قد وقعت في هذا العصر حتى في القوانين الدولية النظرية، وحقيقة إن دوافع الحرب والسلم لم ترتفع قط عن المصالح والمغانم والأسلاب والأسواق، ولكن خط التعامل الدولي على أساس من القانون المعروف لجميع الأطراف، قد وجد، أوجده الإسلام لأول مرة، فاذا خوطبت البشرية مرة أخرى بهذا المنهج لم يكن هذا الخط غريباً عليها ولا مستنكراً.

وبعـــــد

الكلمة التي لا بد أن تقال في ختام هذا البحث المجمل، كي لا يغتر الدعاة إلى الله، وإلى منهج الله، بهذه العوامل المساعدة، وينسوا أخذ الأهبة كاملة لأشواك الطريق وعوائقه، ينبغي أن تكون عن الخطوط المضادة، وعن عوائق الطريق الكأداء ...

إن البشرية بجملتها اليوم أبعد من الله، إن الركام الذي يرين على الفطرة أثقل وأظلم، فالجاهليات القديمة كانت جاهليات جهل وسذاجة وفتوة، أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم، وتعقيد، واستهتار.

إن الفتنة بفتوحات العلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين كانت فتنة طاغية، **والهروب من الكنيسة،** ومن إله الكنيسة الذي تصول باسمه وتجول، وتحرق العلماء، وتعذب المفكرين، وتناهض النهضات، كانت هروباً مجنوناً آبقاً لا يلوى على شيء، ولا يبقى على مقدس.

والحياة الدنيا قد اتسعت رقعتها في حس الناس وواقعهم، اتسعت رقعتها بما استحدثته الحضارة من وسائل الحياة والمتاع والاستقرار في الأرض، وأحس الناس بضخامة هذه الحياة في واقعهم وفي مشاعرهم سواء، وأضافت العلوم والثقافات والفنون والهوايات مساحات ضخمة الى رقعة الحياة في واقع الناس وفي مشاعرهم سواء، ولو قام هذا كله على أساس من المعرفة بالله، لكانت هذه المساحات الجديدة التي أضافها العلم وأضافتها الحضارة، لرقعة الحياة في واقع الناس ومشاعرهم، مساحات تضاف إلى رقعة الإيمان، وتزيد الناس قرباً من الله ومنهجه القويم الممثل في الإسلام.

ولكن هذا كله انما قام على أساس الهروب من الكنيسة الطاغية ومن إلهها الذي تستطيل به على الناس، **فكانت هذه الإضافة الى رقعة الحياة مبعدة عن الله، وعقبة في الطريق اليه، ينبغي أن يحسب حسابها الدعاة.**

وكانت الجاهليات الأولى قريبة العهد بالبداوة، فيها فتوة البداوة وجدها على كل حال، وعلى قدر ما كانت هذه الفتوة تجعل المعركة بين أصحاب الدعوة وأصحاب الجاهلية قاسية وعنيفة، فإنها كانت تجعلها مكشوفة وصريحة، **والبشرية اليوم تعاني من التميع والاستهتار والاستخفاف بكل عقيدة وكل رأى وكل مذهب، كما تعاني من نفاق القلب، وكيد الضعف وخبث الاحتيال،**

وكلها عقبات في طريق الدعوة الى الله، ومعوقات عن الاستقامة على منهج الله.

ما الزاد ؟ انه زاد واحد، زاد التقوى، انه الشعور بالله على حقيقته، انه التعامل مباشرة مع الله، والثقة المطلقة بوعده الجازم الحاسم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)، **والأمر كله هو امر العصبة المؤمنة التي تضع يدها في يد الله، ثم تمضي في الطريق،** وعد الله لها هو واقعها الذي لا واقع غيره، ومرضاة الله هي هدفها الأول وهدفها الأخير، وهذه العصبة هي التي تجرى بها سنة الله في تحقيق منهج الله، (ولا تهنوا لا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسح القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)، وصدق الله العظيم.

خصائص التصور الإسلامي

المقدمة : كلمة في المنـهج

تحديد خصائص التصور الإسلامي مسألة ضرورية لأسباب :

1- **لأنه لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود، يتعامل على أساسه مع هذا الوجود.**
2- **لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني، وغاية وجوده الإنساني.**
3- لأنه بناء على ذلك التفسير الشامل، وعلى معرفة حقيقة مركز الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني، **يتحدد منهج حياته، ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج.**
4- **لأن هذا الدين جاء لينشئ أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لقيادة البشرية**، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من القيادات الضالة، والمناهج الضالة، والتصورات الضالة.

وبالتصور المستمد مباشرة من القرآن، تكيفت الجماعة المسلمة الأولى، تكيفت ذلك التكيف الفريد، وتسلمت قيادة البشرية، وقادتها تلك القيادة الفريدة، وكان القرآن هو المرجع الأول لتلك الجماعة، فمنه انبثقت هي ذاتها، وكانت أعجب ظاهرة في تاريخ الحياة البشرية : ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص كتاب، وبه عاشت، وعليه اعتمدت في الدرجة الأولى.

القرآن لا يدركه حق إدراكه من يعيش خالي البال من مكابدة الجهد والجهاد لاستئناف حياة إسلامية حقيقية، ومن معاناة هذا الأمر العسير الشاق، وجرائره وتضحياته وآلامه، ومعاناة المشاعر المختلفة التي تصاحب تلك المكابدة في عالم الواقع، في مواجهة الجاهلية في أي زمان، والذين يعانون اليوم وغداً مثل هذه الملابسات، هم الذين يدركون معاني القرآن وإيحاءاته، وهم الذين يتذوقون حقائق التصور الإسلامي كما جاء بها القرآن، لأن لها

رصيداً حاضراً في مشاعرهم وفي تجاربهم، يتلقونها به، ويدركونها على ضوئه، وهم قليل ...
إننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الإسلامي، مجرد المعرفة الثقافية، ولا نبغي إنشاء فصل في المكتبة الإسلامية، **إنما نحن نبتغي "الحركة" من وراء "المعرفة"**، نبتغي استجاشة ضمير "الإنسان" لتحقيق غاية وجوده الإنساني، كما يرسمها هذا التصور الرباني.

لابد أن ندرك ثلاث حقائق هامة :
الأولى : أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية، منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً في لغة سقيمة، مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح.
والثانية : أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية، وعناصرها الوثنية العميقة، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساس منهجي واحد، مما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة.
والثالثة : أن المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي، تلك التي أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان رضي الله عنه قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية، وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً، فلما بدأت المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية، بحثاً مغرضاً في الغالب، ومن ثم لم تعد تلك المصادر، في ظل تلك الخلافات، تصلح أساساً للتفكير الإسلامي الخالص، الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت، في جو خالص من عقابيل تلك الخلافات التاريخية.
ومن ثم يحسن عزل ذلك التراث جملة عن مفهومنا الأصيل للإسلام، ودراسته دراسة تاريخية بحتة، لبيان زوايا الانحراف فيه، وأسباب هذا الانحراف، وتجنب نظائرها فيما نصوغه اليوم.

لقد سارت مناهج الفكر الغربي في طريقها الخاص، مستمدة ابتداء من الفكر الإغريقي وما فيه من لوثة الوثنية، ثم مستمدة أخيراً من عدائها للكنيسة، وللتفكير الكنسي، واتجه الفكر الأوربي إلى ابتداع مناهج ومذاهب للتفكير،

الغرض الأساسي منها هو معارضة منهج الفكر الديني، والتخلص من سلطان الكنيسة، بالتخلص من إله الكنيسة، ومن كل ما يتعلق به من أفكار ومن مناهج للتفكير أيضاً.
وكمن العداء للدين وللمنهج الديني، لا في الموضوعات والفلسفات والمذاهب التي أنشأها الفكر الأوربي فقط، بل أيضا في صميم هذا الفكر، وفي صميم المناهج التي يتخذها للمعرفة.

إن منهجنا هو :
أولا : أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة، بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً، وألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية، ليست هناك إذن مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى، إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب ابتداء، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا.
وثانيا : أننا لا نحاول استعارة "القالب الفلسفي" في عرض حقائق "التصور الإسلامي"، اقتناعاً منا بأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة الموضوع، وطبيعة القالب، فلابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، ويطفئ إشعاعها وإيحاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة، وهو الجانب العقلي المعرفي.
وثالثا : أننا لا نستحضر أمامنا انحرافاً معيناً من انحرافات الفكر الإسلامي، أو الواقع الإسلامي، ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله، بحيث يصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلي لنا فيما نبذله من جهد في تقرير خصائص التصور الإسلامي، ذلك أن استحضار انحراف معين، أو نقص معين، والاستغراق في دفعه، وصياغة حقائق التصور الإسلامي للرد عليه منهج شديد الخطر، وله معقباته في إنشاء انحراف جديد في التصور الإسلامي لدفع انحراف قديم، والانحراف انحراف على كل حال (أمثلة: الدفاع عن تهمة أن الإسلام دين السيف، فيصل إلى إنكار الجهاد، أو تغييره) **لإن دفعة الحماسة لمقاومة انحراف معين، قد تنشئ هي انحرافاً آخر.**

وأخيراً فإن هذا البحث ليس كتاباً في "الفلسفة" ولا كتاباً في "اللاهوت" ولا كتاباً في "الميتافيزيقا"، إنه عمل يمليه الواقع، وهو يخاطب الواقع أيضاً.

لقد جاء الإسلام لينشئ أمة، يسلمها قيادة البشرية، لتنأى بها عن التيه وعن الركام، فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة، وتترك منهج القيادة، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه، وفي الركام الكريه.

الفصل الأول : تيه وركام

جاء الإسلام، وفي العالم ركام هائل، من العقائد والتصورات، والفلسفات، والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال.
حقيقتان أساسيتان، ملازمتان للحياة البشرية، وللنفس البشرية، على كل حال، وفي كل زمان :
الحقيقة الأولى : أن هذا الإنسان لابد له من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطرية شعورية، لا علاقة لها بملابسات العصر والبيئة.
الحقيقة الأخرى : هي أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادي، وطبيعة النظام الاجتماعي، تلازماً لا ينفصل، ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة، إنه الانبثاق الذاتي، فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني.
(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة)، ولا يدرك الإنسان ضرورة هذه الرسالة، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات حتى يطلع على ضخامة ذلك الركام، وحتى يرتاد ذلك التيه، وحتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد.

لقد حفلت ديانة بني إسرائيل، اليهودية، بالتصورات الوثنية، وباللوثة القومية على السواء.
ولم تكن الحال مع النصرانية خيراً مما كانت مع اليهودية، بل كان الأمر أدهى وأمر، دخلت الإمبراطورية الرومانية في النصرانية، لا لتخضع للنصرانية، ولكن لتخضع النصرانية لوثنيتها العريقة، ونشأ من ذلك دين جديد، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء، وانتهت النصرانية إلى تلك التصورات الوثنية الأسطورية، التي دارت عليه الخلافات والمذابح عدة قرون.

أما الجزيرة العربية التي نزل فيها القرآن، فقد كانت تعج بركام العقائد والتصورات، ومن بينها ما نقلته من الفرس وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية في صورتهما المنحرفة، مضافاً إلى وثنيتها الخاصة المتخلفة من الانحرافات في ملة إبراهيم التي ورثها العرب صحيحة ثم حرفوها ذلك التحريف، والقرآن يشير إلى ذلك الركام كله بوضوح ...
وعلى العموم فقد تغلغلت عقائد الشرك في حياتهم، فقامت على أساسها الشعائر الفاسدة، التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة ....
وكانت فكرة التوحيد الخالص هي أشد الأفكار غرابة عندهم، هي وفكرة البعث سواء، وذلك مع اعترافهم بوجود الله سبحانه وتعالى، وأنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما، ولكنهم ما كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه، وهو أن يكون الحكم لله وحده في حياتهم وشؤونهم، وأن يتلقوا منه وحده الحلال والحرام، وأن يكون إليه وحده مرد أمرهم كله في الدنيا والآخرة، وأن يتحاكموا في كل شيء إلى شريعته ومنهجه وحده، الأمر الذي لا يكون بغيره دين ولا إيمان.

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية، وعلاقتها بالخلق، وعلاقة الخلق بها، فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وآدابهم وأخلاقهم كذلك.
ولقد جاء الإسلام، وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل، بما يعد تصحيحاً لجميع أنواع البلبلة، التي وقعت فيها الديانات المحرفة، والفلسفات الخابطة في الظلام، وما يعد رداً على جميع الانحرافات والأخطاء التي وقعت فيها تلك الديانات والفلسفات، سواء ما كان منها قبل الإسلام وما جدّ بعده كذلك.

الذي يراجع ذلك الجهد، دون أن يراجع ذلك الركام، قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكرر في القرآن، وإلى هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير وكل مسالك الحياة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه **"ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية".**

عند مراجعة ركام الجاهلية السابقة للإسلام واللاحقة عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة، رحمة حقيقية، رحمة للقلب والعقل، ورحمة بالحياة والأحياء، رحمة

بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق.

الفصل الثاني : خصائص التصور الإسلامي

للتصور الإسلامي خصائصه المميزة، التي تفرده من سائر التصورات، إنه تصور رباني، جاء من عند الله بكل خصائصه، وبكل مقوماته، وتلقّاه الإنسان كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته، لا ليزيد عليه من عنده شيئاً، ولا لينقص كذلك منه شيئاً، ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته.
إنه تصور غير متطور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره، وترتقي في إدراكه وفي الاستجابة له، وتظل تتطور وتترقى، وتنمو وتتقدم، وهذا الإطار يسعها دائماً، وهذا التصور يقودها دائماً.
إن الحركة قانون من قوانين هذا الكون، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد، وليست حركة بغير ضابط ولا نظام، وكذلك الحياة البشرية لابد لها من محور ثابت، ولابد لها من فلك تدور فيه، وإلا انتهت إلى الفوضى وإلى الدمار.
ومن ثم كان هذا التصور الرباني ثابتا، لتدور الحياة البشرية حوله، وتتحرك في إطاره، وهو من ثم كامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكميلا، كما لا يقبل قطع غيار من خارجه، فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره.

وهو من ثم شامل متوازن منظور فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية أولاً، ومنظور فيه إلى توازن هذه الجوانب وتناسقها أخيراً، وهو من ثم الميزان الوحيد الذي يرجع إليه الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، بتصوراته وقيمه، ومناهجه ونظمه، وأوضاعه وأحواله، وأخلاقه وأعماله.

الخصيصة الأولى : الربانية

الربانية أولى خصائص التصور الإسلامي، ومصدر هذه الخصائص كذلك، فهو تصور اعتقادي موحى به من الله – سبحانه - ومحصور في هذا المصدر

لا يستمد من غيره. إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله "الرباني" وحقيقته "الربانية".
وأن وظيفة الرسول، أي رسول، في شأن هذا التصور، هي مجرد النقل الدقيق، والتبليغ الأمين، وعدم خلط الوحي الذي يوحي إليه من عند الله بأي تفكير بشري، أو كما يسميه الله سبحانه بالهوى، أما هداية القلوب به، وشرح الصدور له، فأمر خارج عن اختصاص الرسول، ومرده إلى الله وحده في النهاية، وهذا التوكيد على مصدر هذا التصور، هو الذي يعطيه قيمته الأساسية، وقيمته الكبرى.
إنه ليس للفكر البشري أن يتلقى هذا التصور بمقررات سابقة، يستمدها من أي مصدر آخر، أو يستمدها من مقولاته هو نفسه، ثم يحاكم إليها هذا التصور، ويزنه بموازينها، إنما هو يتلقى موازينه ومقرراته من هذا التصور ذاته، ويتكيف به، ويستقيم على منهجه، كما يتلقى الحقائق الموضوعية في هذا التصور من المصدر الإلهي الذي جاء بها، لا من أي مصدر آخر خارجه.
ثم هو الميزان الذي يرجع بكافة ما يعين له، من مشاعر وأفكار، وقيم وتصورات، في مجرى حياته الواقعية كذلك، ليزنها عنده، ويعرف حقها من باطلها، وصحيحها من زائفها.

وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشري، في ميزان هذا التصور، أداة قيمة وعظيمة، يوكل إليها إدراك خصائص هذا التصور ومقوّماته، مستقاة من مصدرها الإلهي، وتحكيمها في كل ما حوله من القيم والأوضاع.
على أن الفكر ليس وحده الذي يتلقى هذا التصور، إنما هو يشارك في تلقيه، فميزة هذا التصور، المنبثقة من خاصية الربانية، أنه يلبي الكينونة الإنسانية بجملتها، ويدخل كذلك في دائرة إدراكها، والذي لا تدركه منه إدراك ماهية وحقيقة، أو إدراك علّيّة أو كيفية، لا يتعذر عليه التسليم به في طمأنينة. والكينونة الإنسانية، ككل ما هو مخلوق حادث، متحيزة في حدود من الزمان والمكان، لا تملك مجاوزتها على الإطلاق، ولا تملك من باب أولى الإحاطة بالكلي المطلق (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير).

والقرآن الكريم يشير إلى بعض هذه الجوانب، التي لم يزوَّد الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها، بماهيتها أو بكيفيتها :

من هذه الجوانب مسألة كنه الذات الإلهية، ومنها مسألة المشيئة الإلهية وكيفية تعلقها بالخلق، ومنها مسألة الروح، سواء كان المقصود بها: الحياة، أو جبريل، أو الوحي، **ومنها مسألة الغيب** المحجوب عن العلم البشري، إلا بالقدر الذي يأذن به الله لمن يشاء، ومن هذا الغيب خاصة مسألة **موعد الساعة**.

ويبين الله سبحانه كيف ينبغي تلقي هذه وأمثالها، مما هو فوق مدركات الكينونة البشرية : (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب).

وفيما عدا هذه الجوانب، فإن الفكر البشري، أو الإدراك البشري بتعبير أشمل، مدعو للتدبر والتفكر، والنظر والاعتبار، والتكيف والتأثر، والتطبيق، في عالم الضمير وعالم الواقع، لمقتضيات هذا التصور، والإيجابية في العمل والتنفيذ وفق هذا التصور الشامل الكبير.

وما من دين احتفل بالإدراك البشري، وإيقاظه، وتقويم منهجه في النظر، واستجاشته للعمل، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وتحريره من قيود الكهانة والأسرار المحظورة، وصيانته في الوقت ذاته من التبديد في غير مجاله، ومن الخبط في التيه بلا دليل، ما من دين فعل ذلك كما فعله الإسلام.

ومن من دين وجه النظر إلى سنن الله في الأنفس والآفاق، وإلى طبيعة هذا الكون وطبيعة هذا الإنسان، وإلى طاقاته المذخورة وخصائصه الإيجابية، وإلى سنن الله في الحياة البشرية معروضة في سجل التاريخ، ما من دين وسّع على الإدراك في هذا كله ما وسّع الإسلام.

إننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، وأننا لا نفهم الإنسان ككل، وأننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة على أسئلة كثيرة.

إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة، والتجرد، والجمال، التي بلغها علم المادة، إن أسرار التكوين الإنساني ستظل خافية عليه أبداً، **سيظل سر الحياة، وسر الموت، خافيين تماماً، وسيظل سر الروح الإنساني بعيداً عن مجال إدراكه، لأن شيئاً من هذا كله لا يلزمه في وظيفته الأساسية.**

حقيقتان جاهرتان :

أولاهما : حقيقة رحمة الله بهذا الإنسان، حين لم يدعه، بجهله هذا الذي يشهد به عالم كبير من علمائه في القرن العشرين، يصنع تصوره الاعتقادي لنفسه، وهذا التصور يشتمل تفسيراً شاملاً، لا لحقيقة الإنسان المجهولة له فحسب، ولكن كذلك لحقيقة الألوهية الكبرى، ولحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وسائر الارتباطات بين هذه الحقائق جميعاً.

وثانيتهما : حقيقة التبجح الذي تبجحه كل من تصدى من جنس البشر، قديماً وحديثاً، لوضع ذلك التفسير الشامل للكون والحياة والإنسان، ولوضع مناهج للحياة وأنظمة للناس وشرائع لحياتهم، بمثل هذا الجهل، الذي لا يمكن أن يؤدي، إلا لمثل ما أدى إليه من تيه وركام في التصورات.

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته، وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة، وأعادوا الأمر جذعاً، وبدأوا البحث أُنفاً، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة، لا يجدون فيها مرشداً ولا خبيرا، وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً، وأشد تعباً، وأعظم اشتغالاً بالفضول.

أما الأخطر من هذا كله، فكان هو تحريف العقائد السماوية –وبخاصة النصرانية- وقيام كنيسة في أوربا تملك السلطان باسم هذه النصرانية المحرفة، وتفرض تصوراتها الباطلة بالقوة كما تفرض معلوماتها الخاطئة والناقصة عن الكون المادي.

إن جميع النزعات الأوربية، التي نشأت معادية للدين وللفكر الديني، كان منشؤها هو هذا الانحراف، وإن هذا البلاء الذي يعم البشرية كلها اليوم، إنما نشأ من عقابيل تدخل الفكر البشري، في أصل التصور الرباني، وهو بلاء لا يعدله بلاء آخر في تاريخ البشرية الطويل، ولعل الخلاصة القادمة أن تكشف لنا عن حكمة الله ورعايته في حفظ أصول التصور الإسلامي بعيدة عن تحريف البشر، وعن خطورة أية محاولة باسم "التجديد الديني" أو "التطور في الفكر الديني" أو غيرهما، لإدخال أي عنصر بشري على التصور الرباني.

التلخيص لخط سير الفكر الأوربي في اتجاه مضاد للكنيسة وتفكيرها الديني:

أربع مراحل في تاريخ التفكير الأوربي، منذ القرن الرابع عشر إلى الآن، شهدت فيها العقلية الأوربية صراعاً فكرياً، واتجاهات عقلية مختلفة، تدور حول "تبرير" مصدر من مصادر المعرفة، التي عرفتها البشرية في تاريخها حتى الوقت الحاضر، وهي: **الدين، والعقل، والحس أو الواقع**، وفي كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن "قيمة" أي واحد من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة، أو اليقينية، ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً.

طوال القرون الوسطى كان الدين سائداً في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته، وفي فهمه للطبيعة، وكان يقصد بالدين "المسيحية"، وكان يراد من المسيحية "الكثلكة"، وكانت الكثلكة تعبر عن "البابوية"، والبابوية نظام كنسي ركز "السلطة العليا"، باسم الله، في يد البابا، وقصر حق تفسير "الكتاب المقدس" على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى.

فقام مارتن لوثر (Luther) (1453-1546م) وكافح "تعاليم الشيطان"، كما سماها، وهي تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية، فحارب صكوك الغفران، ونظر إليها كوسائل للرق والعبودية، وحارب عقيدة "التثليث"، كما حارب سلطة البابا، وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية هي الكتاب المقدس.

ثم كالفن (Calvin) (1509-1564م) وأقر لوثر على أن الإنجيل وحده هو المصدر "للحقيقة المسيحية" وأن عقيدة التثليث لا تقبلها المسيحية الصحيحة.

وبحركه لوثر وكالفن الإصلاحية تعرضت المسيحية للجدل الفكري، وأصبحت موضوعاً للنقاش العقلي، والمذاهب الفلسفية.

وهكذا كان "الدين" الذي جعل موضوعاً للصراع العقلي الأوربي، نوعاً خاصاً من الدين، والذي قبل منه باسم الفلسفة، كان جملة خاصة من تعاليمه، والذي رفض منه باسم الفلسفة أيضاً، كان كذلك جملة خاصة من تعاليمه.

استمر اعتبار الوحي، كمرجع أخير للمعرفة، على خلاف في تحديد تعاليمه، حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهو عصر "**التنوير**" في تاريخ الفلسفة الأوربية، وعصر التنوير له طابعه الخاص، وطابعه الفكري :

(أ) تزايد شعور العقل وإحساسه بنفسه، وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده، بعد أن يزيل كل عبوديه ورثها هو، حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير.

(ب) **الشجاعة والجرأة التي لا تتأرجح في إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل،** وكذلك في تكوين الدولة والجماعة، والاقتصاد، والقانون، والدين، والتربية، تكويناً جديداً، على الأسس السليمة المصفاة، التي لكل واحد منها.
(ج) **الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع، وبالأخوة في الإنسانية، على أساس من هذه الثقافة العقلية، المستمرة في التطور.**
ومعنى ذلك كله سيادة العقل، كمصدر للمعرفة، على غيره، وغيره الذي ينازعه السيادة هو الدين، فللعقل الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة، وقانون، ودين، و"الإنسانية" هي هدف الحياة للجميع.
فالتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل فيه محله. والإنسانية التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضاً عن "القربى من الله" كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة.
ومن هذا يتضح أن صراع العقل مع الدين، هو صراع الفكر الإنساني مع مسيحية الكنيسة، وأن دوافع هذا الصراع هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية، سواء في مجال التوجيه والبحث، أو في مجال السياسة، أو نطاق العقيدة والإيمان.

وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربي، وبظهور فجر القرن التاسع عشر، وموضوع الصراع واحد لم يختلف عن ذي قبل، هو: الدين، والعقل، والطبيعة. ولكن تميز القرن التاسع عشر بفلسفة معينة، لأن **اتجاه الفكر فيه مال إلى "سيادة الطبيعة" على الدين والعقل، وإلى استقلال "الواقع" كمصدر للمعرفة اليقينية إزاء الدين والعقل.** تميز القرن التاسع عشر بأنه عصر "الوضعية" (Positivism)، والوضعية نظرية فلسفية نشأت في دائرة "المعرفة".
الفلسفة "العقلية" أو"المثالية" قد أفلست، في نظر فلاسفة "الوضعية"، فيما أرادت أن تصل إليه : وهو إبعاد التوجيه الكنسي كلية عن توجيه الإنسان، وتنظيم الجماعة الإنسانية، فقد مالت هذه الفلسفة على عهد "هيجل" إلى تأييد الوحي والدين من جديد.
فالغاية الأولى للمذهب الوضعي، من منطقه، هي معارضة الكنيسة، أو معارضة معرفتها، **ومن باب التغطية باسم "العلم"، هي معارضة الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والمثالية العقلية،** وإلا فالمذهب الوضعي في الوقت الذي ينكر فيه دين الكنيسة **يضع ديناً جديداً بدله، هو دين "الإنسانية**

الكبرى"، ويقوم على "عبادة" و"طقوس"، كما تقوم المسيحية، وله قداسة واحترام على نحو ما للكثلكة.

وأما الأساس الخاص الذي قامت عليه الوضعية فهو تقدير "الطبيعة"، والطبيعة، والحقيقة، والواقع، والحس، كلها سواء في نظر الوضعيين. وتقدير الطبيعة، لا كمصدر مستقل فحسب للمعرفة، بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة، فالطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، وهي التي تكوّن عقل الإنسان، والإنسان، لهذا، لا يملي عليه من خارج الطبيعة، مما وراءها، كما لا يملي عليه من ذاته، إذ ما يأتي من "ما وراء الطبيعة" خداع للحقيقة، وليس حقيقة، وما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة، وليس حقيقة أيضاً، وبناء على ذلك: فالدين وهو وحي "ما بعد الطبيعة" خداع.
إن عقل الإنسان مخلوق، ولكن خالقه الوجود الحسي، إنه يفكر، ولكن عن تفاعل مع الوجود المحيط به، إنه مقيد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية، وطريق الإنسان في حياته الطبيعية يبتدئ من الفرد، وينتهي بالجماعة، وطالما كانت الجماعة هي غاية الفرد الأخيرة، فهي معبوده، وتذهب حريته، لتبقى لها الحرية، وتفنى حياته لتبقى لها الحياة.

ولماركس نظرية مادية (الجدلية المادية)، تأثر فيها بكومت (من فلاسفة الوضعية)، لا يدعي فحسب أن المادة توجد قبل العقل، بل أيضاً المادة أكثر أهمية واعتباراً من العقل، إذ العقل متوقف على المادة في وجوده، ويرفض الفكرة الأساسية في الدين، وهي الإيمان بالله، كموجود أزلي مستقل تماماً ومتجرد تماماً عن المادة، **ويرى أن "كل دين مخدر للشعب"**.
فالعقل انعكاس للمادة، ويشمل في عموم منطق الماركسية كل الأحداث الطبيعية وما يحيط بها، ولكن في التطبيق لهذا المنطق الماركسي الأولي تعتبر المنظمات والأحداث الاقتصادية، من وجهة نظر متعددة، هي القوة المادية الرئيسية أيضاً، أما الأحداث السياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، فهي انعكاس للأحداث الاقتصادية الراهنة، وهكذا فكل الإنتاج الثقافي والذهني فرع عن الحياة الاقتصادية، وكل التاريخ لهذا يجب أن يكون تاريخ اقتصاد.

وهكذا انتهت محاولة الهروب من الكنيسة، أولاً إلى الفلسفة العقلية المثالية، ثم ثانياً إلى الفلسفة الحسية الوضعية، ثم إلى الجدلية المادية. وكان هذا الخط

الطويل من الانحراف في الفكر الأوربي نتيجة مباشرة لتشويه التصور الديني بمقولات وتصورات بشرية، من صنع الكنائس والمجامع المتوالية.
والهاربين من الله، لكي يهربوا من قبضة الكنيسة، لم يصلوا إلى أية حقيقة "مضبوطة" يصح أن تكون عذراً أو حجة لمن يريد أن يقول : إنه يلجأ إلى هذا هروباً من معميات ما وراء الطبيعة.
لقد استخدم فيشته مبدأ النقيض، فكان مجرد تحكم عقلي من "فيشته" لبناء مذهب، ومن هنا يكون هذا الأساس العقلي "المثالي" لا يتعامل مع الواقع في شيء، وليس له رصيد في حياة البشر.
المسألة كلها كانت هي إقامة إله آخر، غير إله الكنيسة، إله ليس له كهنة ولا كرادلة ولا بابا ولا كنيسة، ومن ثم أقيم هذا "العقل" إلها، لا سدنة له ولا كهنة، وهذا هو الهدف النهائي المقصود.
وهيجل استخدم نفس المبدأ (النقيض) لتأكيد قيمة العقل، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد "الوحي" كمصدر أخير "للحقيقة"، على اعتبار أن الله عقل، وهذا نموذج كذلك من "المثالية" التي ضاقت بها "الوضعية" في أوربا، وحق لها أن تضيق.
ولكن السادة الوضعيين حين كفروا بإله الكنيسة، ثم كفروا بإله "العقل"، لم يذهبوا إلى ما هو أهدى. لقد أقاموا من الطبيعة إلها، ولكن ما هي هذه الطبيعة؟.
أهي كائن محدد؟ أهي ذات كلية؟ أم هي هذه "الأشياء" المتفرقة من أجرام وأشكال وحركات وهيئات؟ أهي شيء له حقيقة مستقلة عن تصور العقل الإنساني لها؟ أم هي الصورة التي تنطبع في العقل عن المحسوسات التي يدركها؟ أم هي شيء له حقيقة في ذاته، وما ينطبع منها في العقل قد يطابق حقيقتها وقد لا يطابقها؟ متى يكون لهذا الإله قوة الخلق؟ في أي حالاته؟ ومن الذي خلق الإنسان الذي تخلق الطبيعة عقله؟ أهي خلقته ابتداء؟ أم اكتفت بأن تخلق عقله بعد وجوده؟ **أي إله هذا الذي يقدمه لنا السادة الماديون؟.**
أما هذا المسخ الذي يثير الاشمئزاز في تصور كارل ماركس وانجلز للحياة البشرية ودوافعها ومجالها الذي تتحرك فيه، فيدير ظهره لكل هذه العظمة الكونية، ولكل هذه الروعة، ليخنس في حجر الاقتصاد، والآلة والإنتاج، لا بوصفها غاية للإنسان ومحركاً فحسب، ولكن بوصفها كذلك العلة الأولى، والإله الخالق، والرب المتصرف، المصرّف لهذه الحياة.

إن التصور الإسلامي يدع للعقل البشري وللعلم البشري ميدانه واسعاً كاملاً، فيما وراء أصل التصور ومقوّماته، ولا يقف دون العقل يصده عن البحث في الكون، بل هو يدعوه إلى هذا البحث ويدفعه إليه دفعاً، ولا يقف دون العلم البشري في المجال الكوني، بل هو يكل أمر الخلافة كله، في حدود التصور الرباني، للعقل البشري وللعلم البشري، وندرك مقدار نعمة الله ومقدار رحمته في تفضله علينا بهذا التصور الرباني، وفي إبقائه وحفظه على أصله الرباني.

الخصيصة الثانية : الثبات

من الخاصية الأساسية للتصور الإسلامي، خاصية الربانية، تنبثق سائر الخصائص الأخرى، ومنها خاصية **"الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت"**.

وهذه السمة، سمة الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت، هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله، فيما يبدو لنا، لا في التصور الإسلامي وحده (الذرة، الكواكب والنجوم، ...)، ومن ثم فهي بارزة عميقة في طبيعة التصور الإسلامي.

إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية، وهي قاعدة التصور الإسلامي، ثابت الحقيقة، وثابت المفهوم أيضاً، وغير قابل للتغيير ولا للتطوير :

- **حقيقة وجود الله، وسرمديته، ووحدانيته**، بكل إشعاعاتها، وقدرته، وهيمنته، وتدبيره لأمر الخلق، وطلاقة مشيئته، إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس،
- **وحقيقة أن الكون كله، أشياءه وأحياءه، من خلق الله وإبداعه،**
- **وحقيقة العبودية لله، عبودية الأشياء والأحياء**، وعموم هذه العبودية للناس جميعاً، بما فيهم الرسل –عليهم الصلاة والسلام- عبودية مطلقة،
- **وحقيقة أن الإيمان بالله**، بصفته التي وصف بها نفسه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، **شرط لصحة الأعمال وقبولها، وإلا فهي باطلة من الأساس،**
- **وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام، وأن الله لا يقبل من الناس ديناً سواه،**
- **وحقيقة أن الإنسان، بجنسه، مخلوق مكرم** على سائر الخلائق في الأرض، مستخلف من الله فيها، مسخر له كل ما فيها،

- وحقيقة أن الناس من أصل واحد، ومن ثم فهم، من هذه الناحية، متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها، فيما بينهم، هي التقوى والعمل الصالح،
- وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله، بمعنى العبودية المطلقة لله وحده، بكل مقتضيات العبودية،
- وحقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة، وهي هذا المنهج الإلهي وفقط،
- وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، وأن الإنسان مبتلى وممتحن في كل حركة، وفي كل عمل.
هذه وأمثالها من المقومات والقيم كلها ثابتة، غير قابلة للتغير ولا للتطور، ثابتة لتتحرك ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع في إطارها، وقد تتسع المساحة التي تتجلى فيها مدلولات هذه المقومات والقيم، كلما اتسعت جوانب الحياة الواقعية، وكلما اتسع مجال العلم الإنساني، وكلما تعددت المفاهيم التي تتجلى فيها هذه المقومات والقيم، ولكن أصلها يظل ثابتاً، وتتحرك في إطاره تلك المدلولات والمفاهيم.
إن حقيقة أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض، مثلاً، تتجلى في صور شتى (الزراعة، الأقمار الصناعية)، ولكن حقيقة الخلافة في الأرض ثابتة على كل حال، فلا يعلوا شيء في هذه الأرض على "الإنسان".
وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة، مثلاً، تتمثل في كل نشاط يتجه به الإنسان إلى الله، وألوان النشاط غير محدودة، وتتمثل في عبوديته لله وحده، بالتحاكم إلى منهجه وحده، في كل شؤون الحياة، وهذه الشؤون غير محدودة، **فإذا لم يتجه إلى الله بكل نشاط، وإذا لم يتحاكم إلى منهج الله في كل شأن، فقد أخلّ بهذه الحقيقة الثابتة، وخرج على غاية وجوده الإنساني، واعتبر عمله باطلاً غير قابل للتصحيح المستأنف، ولا بالقبول من المؤمنين.**

قيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم على هذا النحو، هي ضبط الحركة البشرية، والتطورات الحيوية، فلا تمضي شاردة على غير هدى.
وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات، وبكل ما يجدّ في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات.

وقيمته هي وجود مقوّم للفكر الإنساني مقوّم منضبط بذاته، يمكن أن ينضبط به الفكر الإنساني، فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات، وإذا لم يكن هذا المقوم الضابط ثابتاً، فكيف ينضبط به شيء إطلاقاً.
إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية، والحياة البشرية، أن تتحرك داخل إطار ثابت، وان تدور حول محور ثابت، إنها على هذا النحو تمضي على السنة الكونية الظاهرة في الكون كله، والتي لا تختلف في جرم من الأجرام، وهي ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم، وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت، فهي تقتل "الإنسان" وتحوله إلى آلة، لتضاعف الإنتاج، إنها تقضي على مقوماته "الإنسانية" وعلى إحساسه بالجمال والخلق والمعاني السامية لتحقيق الربح لعدد قليل من المرابين، وتجار الشهوات، ومنتجي الأفلام السينمائية، وبيوت الأزياء وغيرها.

ونحن لا نشتد في لوم الفكر الغربي على موقفه هذا، وإن يكن موقفاً خاطئاً معيباً، فقد صادف عقيدة محرفة مشوهة مشوبة بالوثنيات والأساطير منذ اللحظة الأولى، ثم واجه كنيسة مستبدة فاسدة في الوقت ذاته، تستطيل على الفكر والعلم والناس باسم هذه الخرافات التي تجعلها أساس العقيدة.
إن فكرة التطور المطلق، الذي لا يتقيد بأي أصل ثابت، ولا بأية قيمة ثابتة، ولا بأية حقيقة ثابتة، ليست حقيقة علمية وإنما هي شهوة جامحة، وهوى شارد، مبعثه الرغبة في التملص من وثاق الكنيسة الجبار.
إن داروين كان هارباً من "الله" لأنه كان هارباً من الكنيسة وإلهها الذي تصول باسمه وتجول، ومن ثم رد الحياة إلى "الطبيعة" التي لا حد لقدرتها كما يقول، ومن ثم حاول أن يوهم أن لا ثبات لشيء على الإطلاق.
والمذهب الماركسي، هو أشد المذاهب "الوضعية" معارضة لحقيقة "الحركة داخل إطار ثابت وحول محور ثابت"، لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة في طبيعة الكون "المادي" ذاته، يفقد المذهب ركيزته الأولى التي يقوم عليها، ويحطم دعواه في "التقدمية" كما يفهمها. إن الماركسية كما رأينا تقف بقانونها ذاته عند هواها، فلا تعمله إلا فيما قبل قيام "الشيوعية"، ثم تبطله بعد أن تبلغ "غرضها" منه، وتسمى هذا تفكيراً علمياً، وذلك فوق ما في مبدأ النقيض ذاته من تحكّمية نظرية لا رصيد لها من الواقع كما أسلفنا.
ومع هذا التهافت في بناء المذهب على مجرد التحكم والهوى، فقد صحبته لوثة في وزن القيم لم تقتصر على معتنقيه، بل تجاوزتهم إلى المعارضين له

كذلك: في أوربا وفي أمريكا، **لوثة التخلي عن كل ما هو سابق، والتقاط كل ما هو لاحق، ولوثة التحلل من كل قيمة تصد الشهوات عن الانطلاق بلا حدود ولا قيود، ولوثة السخرية من ثبات القيم الأخلاقية وغير الأخلاقية.**

إن التطور المطلق هو مجرد عملية تبرير لكل ما يراد عمله، وهو أولاً وقبل كل شيء عملية تبرير لما تريده "الدولة" بالأفراد، بحيث لا يكون هناك مبدأ ثابت، ولا قيمة ثابتة، يلوذ بها الأفراد في مواجهة الدولة، وبحيث لا يكون هناك "حق ثابت" يفئ إليه الجميع، ولا دستور ثابت يتحاكم إليه الجميع، وفي نظير إطلاق يد الدولة تجاه الأفراد من كل قيد، تطلق الدولة "شهوات" الأفراد من كل قيد، ليجدوا في هذا الانطلاق "الحيواني" تعويضاً عن قيمهم المسلوبة، وحرياتهم المسلوبة، وحقوقهم المسلوبة.

إن الثبات هو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية "الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت" فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر، بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء.
وهو الذي يقي الفكر الإسلامي ويقي المجتمع الإسلامي مثل تلك اللوثة في الفكر، وهو الذي يبث الطمأنينة في الضمير المسلم، وفي المجتمع المسلم، ثم هو في النهاية الذي يضمن للمسلم في المجتمع الإسلامي مبادئ ثابتة يتحاكم إليها هو وحكامه على السواء.

حالتان اثنتان تتعاوران الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان: حالة الهدى وحالة الضلال، مهما تنوعت ألوان الضلال، حالة الحق وحالة الباطل، مهما تنوعت ألوان الباطل، حالة النور وحالة الظلام، مهما تنوعت ألوان الظلام، حالة الشريعة وحالة الهوى، مهما تنوعت ألوان الهوى، حالة الإسلام وحالة الجاهلية، مهما تنوعت ألوان الجاهلية، حالة الإيمان وحالة الكفر، مهما تنوعت ألوان الكفر، وإما أن يلتزم الناس الإسلام ديناً (أي منهجاً للحياة ونظاماً) وإلا فهو الكفر والجاهلية والهوى والظلام والباطل والضلال.

والقيمة الكبرى لهذه الخاصية، هي تثبيت الأصل الذي يقوم عليه شعور المسلم وتصوره، فتقوم عليه الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في

استقرار وثبات، مع إطلاق الحرية للنمو الطبيعي في الأفكار والمشاعر، وفي الأنظمة والأوضاع، فلا تتجمد في قالب حديدي ميت، ولا تنفلت كذلك من كل ضابط. **ولعل هذه الخاصية هي التي ضمنت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته مدى ألف عام،** ولم يبدأ تفككه وضعفه إلا منذ أن تخلى عن هذه الخاصية في تصوره، وإلا منذ أن أفلح أعداؤه في تنحية التوجيه الإسلامي، وإحلال التوجيهات الغربية مكانه في العالم الإسلامي.
إننا لا نحتاج إلى الحيطة ضد التجمد في قالب حديدي، فخاطر التجمد لا يرد على مثل هذا التصور، ولا على الحياة التي تتحرك في إطاره، فالحركة كما قلنا هي القاعدة فيه، كما أنها هي القاعدة في التصميم الكوني.

وبالنسبة لفكرة أن جميع الثقافات الإنسانية تولد، ثم تشب وتنضج، ثم يدركها البلى في آخر الأمر، فلا تصح بالنسبة للإسلام، فإننا إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم، بل هو شرع سنّه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان، فإن الموقف يتبدل تماماً.
وإذا كانت الثقافة الإسلامية، في اعتقادنا، نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً، فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول: إنها كسائر الثقافات، خاضعة لمرور الزمن، ومقيدة بقوانين الحياة العضوية.
إننا في جميع الأمور نرى الجنس البشري في كل ما وصل إليه مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهج الإسلامي، فأين ما يبرر القول إذن بأن الإسلام قد ذهبت أيامه، أذلك لأن أسسه دينية خالصة، والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم؟.
نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام، كما يظن بعض المسلمين، لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل، أما الذي نحتاج إليه فعلاً، فهو إصلاح موقفنا من الدين، بمعالجة كسلنا، وغرورنا، وقصر نظرنا، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا.
ونحن الذين وقانا الله شر تلك الملابسات التاريخية التي شرّدت الفكر الغربي في مجاهل التيه، نكون أحمق الحمقى إذا نحن شردنا في التيه مختارين بدون عذر ولا سبب ولا ملابسة من ملابسات التاريخ، ولا نكون مضيعين لأنفسنا في التيه فحسب، بل نكون مضيعين للبشرية كلها، حين نُفقدها المثابة الثابتة، التي يمكن أن تفئ إليها ذات يوم، فتجد عندها الأمن والطمأنينة والاستقرار، بعد طول الشرود والقلق والعثار.
فلنقدر تبعتنا الخطيرة تجاه أنفسنا وتجاه البشرية كلها في هذا الأمر الخطير.

الخصيصة الثالثة : الشمول

الإنسان لأنه أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان، ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك، ومحكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته، فإنه حينما يفكر في إنشاء تصور اعتقادي من ذات نفسه، يجئ تفكيره محكوماً بهذه السمة التي تحكم كينونته كلها، يجئ تفكيره جزئياً، يصلح لزمان ولا يصلح لآخر، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر، ويصلح لحال ولا يصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر، فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه.
لا يمكن أن تجئ فكرة بشرية، ولا أن يجئ منهج من صنع البشرية يتمثل فيه "الشمول" أبداً، إنما هو تفكير جزئي، وتفكير وقتي، ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يختم التغيير.

تتمثل خاصية الشمول التي يتسم بها هذا التصور في صور شتى : إحدى هذه الصور وأكبرها: رد هذا الوجود كله إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة، وهذه هي حقيقة "التوحيد" الكبيرة، التي هي المقوّم الأول للتصور الإسلامي.
إن هذا الكون يواجه الكينونة الإنسانية ابتداء بوجوده، ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا الوجود، ثم يواجهها بتناسقه وتوازنه وموافقاته العجيبة التي يستحيل أن تأتي بها المصادفة، ويتطلب منها إدراكاً وتفسيراً لهذا التناسق والتوازن والموافقات العجيبة.
والحياة كذلك تواجه الكينونة الإنسانية بعلامات استفهام كثيرة، لا تقل، إن لم تزد عمقاً، عن علامات الاستفهام التي يثيرها الكون بوجوده وبتناسقه.

إن التصور الإسلامي هو وحده الذي يملك أن يقدم لنا التفسير المفهوم لكل هذه الموافقات في "تصميم الكون"، هو الذي يملك أن يقدم لنا تفسيراً نواجه به كل علامة استفهام عن وجود هذا الكون ابتداء، وعن كل انبثاقة تقع فيه، كما أنه هو الذي يملك أن يفسر لنا سر انبثاق الحياة في المادة الميتة، وسر سيرتها هذه السيرة العجيبة، دون أن نضطر إلى الهروب من سؤال واحد، أو إلى المماحكة والمماحلة والإحالة إلى جهات غير محددة المفهوم، كالإحالة إلى

الطبيعة. إن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشري، إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة، والمسافة بين المادة الجامدة والخلية الحية تلي المسافة التي بين الوجود والعدم، إنها مسافة هائلة لا يعبرها العقل البشري إلا بالإحالة على تلك الإرادة المبدعة، التي تنشئ ما تريد إنشاء، وتبدعه إبداعاً، إرادة الله (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)، (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

وحتى الأحداث التي يبدو فيها سبب قريب ظاهر، يُعني التصور الإسلامي بردها إلى إرادة إله من وراء الأسباب القريبة (أفرأيتم ما تمنون)، (أفرأيتم ما تحرثون)، (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى).
وحسبنا أن نقول: **إن التصور الإسلامي يمنح القلب والعقل راحة وطمأنينة،** واتصالاً بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود، كما هي في عالم الحقيقة والواقع، ويعفى الفكر البشري من الضرب في التيه بلا دليل، ومن الإحالة على أسباب غير مضبوطة، وأحياناً غير موجودة.
وذلك كله فضلاً على العنصر الأخلاقي الذي ينشئه هذا التصور ويثبته، في القلب البشري، وفي الحياة البشرية، وهو يرد خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله، ورقابته، وهيمنته، وسلطانه.
وصورة أخرى من صور خاصية الشمول أنه يتحدث عن حقيقة العبودية وخصائصها وصفاتها، يتحدث عن هذه الحقيقة ممثلة في الكون، والحياة، والإنسان، ويربط بين مجموع تلك الحقائق، من جميع جوانبها، في تصور واحد منطقي فطري، يتعامل مع بديهة الإنسان وفكره ووجدانه، ومع مجموع الكينونة البشرية في يسر وسهولة.
فتتكون صورة كاملة شاملة، وتفسير جامع مفصل، لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر، بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر، لأنه أوسع وأشمل، وأدق وأعمق، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر.

إن كل اصطلاح له تاريخ معين، وله إيحاءات معينة مستمدة من ذلك التاريخ، وللتصور الإسلامي اصطلاحاته الخاصة المتفقة في طبيعة اشتقاقها اللغوي، وفي ملابساتها التاريخية والموضوعية، مع طبيعته وإيحاءاته.
إن هذا التصور يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً، ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جداً في القرآن الكريم، كما يعرّف

الناس بطبيعة الكون الذي يعيشون فيه، وخصائصه، وارتباطه بخالقه، ودلالته على خالقه، واستعداده لنشأة الحياة فيه والأحياء، وتسخيره لهم بإذن الله، ويحدثهم عن الحياة والأحياء، فيعرفهم مصدر الحياة ومصدر الأحياء، وشيئاً من خصائصها كذلك، بالقدر الذي تسمح مدارك البشر بمعرفته، ويعقد بينهم وبين الأحياء جميعاً آصرة العبودية لله.

ويحدثهم عن الإنسان حديثاً مستفيضاً، يتناول مصدره ومنشأه، وطبيعته وخصائصه، ومركزه في هذا الوجود، وغاية وجوده، وعبوديته لربه ومقتضيات هذه العبودية، ثم نواحي ضعفه وقوته، وواجباته وتكاليفه، وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بحياته في هذه الأرض، ومآله في العالم الآخر.

وهكذا يجد الإنسان من كثرة النصوص القرآنية وتنوعها حول هذه الحقائق الأساسية ما يشعره بالقصد إلى بيانها وتحديدها، والتوسع فيها، لتكون قاعدة كاملة شاملة للتصور الإسلامي المستقل.

وصورة ثالثة من صور الشمول في التصور الإسلامي، إذ يتناول الحقائق الكلية كلها: حقيقة الألوهية، الحقيقة الأولى والكبرى والأساسية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، بمثل ذلك الشمول الذي أشرنا إليه، **فإنه يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها، وبكل أشواقها، وبكل حاجاتها، وكل اتجاهاتها، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء، وتتوجه إليها بكل شيء**، جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقي غضبها وتبغي رضاها، جهة واحدة تملك لها كل شيء، لأنها خالقة كل شيء، ومالكة كل شيء، ومدبرة كل شيء.

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو، تصبح في خير حالاتها، لأنها تكون حينئذ في حالة "الوحدة" التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها.

وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كيان التاريخ الإنساني، ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم، لأنها من صميم قوة هذا الكون، وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضاً.

ومن مظاهر ذلك التجمع في الكينونة الإنسانية، أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة، متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني، العبادة، العبادة

التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شؤون الخلافة، وهذا التجمع النفسي والحركي هو ميزة الإسلام الكبرى.
وبهذه الخاصية صلح الإسلام أن يكون منهج حياة شاملاً متكاملاً، منهجاً يشمل الاعتقاد في الضمير، والتنظيم في الحياة، في ترابط وتداخل يعز فصله، لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين، ولأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين.
فليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة، أولاً وأخيراً، فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين على هذا النحو فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين.
إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني، وإن كل هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة، يقوم عليها بناء الحياة كله، **بل إن أهميتها تتجلى كذلك في حسن تذوق الحياة، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق،** فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله، وحين يصبح كل نشاط فيها، صغر أم كبر، جزءاً من هذه العبادة، أو كل العبادة.
وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها، حتى تلك التي تظهر تافهة، على أنها عبادات، وأن نأتيها بوعي، وعلى أنها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله.
إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل، إنه يعلمنا أولاً أن عبادة الله الدائمة، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها، هي معنى الحياة نفسها، ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين، حياتنا الروحية، وحياتنا المادية، يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا، لتكون كلاًّ واحداً متسقاً.

وبعد فإن هذا الشمول، بكل صوره، فوق أنه مريح للفطرة البشرية، لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة، ولا يكلفها عنتاً، ولا يفرقها مزقاً، هو في الوقت ذاته يعصمها من الاتجاه لغير الله في أي شأن، وفي أية لحظة، أو قبول أية سيطرة تستعلي عليها بغير سلطان الله، وفي حدود منهج الله وشريعته، وفي أي جانب من جوانب الحياة.

الخصيصة الرابعة : التوازن

التوازن في مقوماته، والتوازن في إيحاءاته، فهو تصور شامل، وهو شمول متوازن. وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك، هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. وتتمثل هذه الخاصية في عدة موازنات، نذكر منها أبرزها :
هناك التوازن بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به، وينتهي عملها فيه عند التسليم، والجانب الذي تتلقاه لتدركه، وتبحث حججه وبراهينه، وتحاول معرفة علله وغاياته وتفكر في مقتضياته العملية، وتطبقها في حياتها الواقعية.
والفطرة البشرية تستريح لهذا ولهذا، لأن كليهما يلبي فيها جانباً أصيلاً، مودعاً فيها وهي تخرج من يد بارئها، وهكذا تجد الفطرة البشرية في التصور الإسلامي ما يلبي أشواقها كلها من معلوم ومجهول، ومن غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاءه جلال الخالق الكبير، ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون وكرامته على الله. وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذلك، وهي تؤمن بالمجهول الكبير، وهي تتدبر المعلوم الكبير.

والتوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية، فالمشيئة الإلهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة، وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه، وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).
وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة، أن تتبدى للناس، عادة، في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها، على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة الله، مع هذا، طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جارياً على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة.

وبين ثبات السنن وطلاقة المشيئة، يقف الضمير البشري على ارض ثابتة مستقرة، يعمل فيها، وهو يعلم طبيعة الأرض، وطبيعة الطريق، وغاية السعي، وجزاء الحركة. ويتعرف إلى نواميس الكون، وسنن الحياة، وطاقات الأرض، وينتفع بها وبتجاربه الثابتة فيها منهج علمي ثابت. وفي الوقت ذاته يعيش موصول الروح بالله، معلق القلب بمشيئته لا يستكثر عليها شيئاً، ولا يستبعد عليها شيئاً، ولا ييئس أمام ضغط الواقع أبداً، والمسلم يأخذ بالأسباب، لأنه مأمور بالأخذ بها، ويعمل وفق السنة، لأنه مأمور بمراعاتها، لا لأنه يعتقد أن الأسباب والوسائل هي المنشئة للمسببات والنتائج، فهو يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به وحده من وراء الأسباب، بعد أداء واجبه في الحركة والسعي والعمل واتخاذ الأسباب، طاعة لأمر الله.
وهكذا ينتفع المسلم بثبات السنن في بناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية، في التعامل مع الكون وأسراره وطاقاته ومدخراته. فلا يفوته شيء من مزايا العلوم التجريبية والطرائق العملية، **وهو في الوقت ذاته موصول القلب بالله، حي القلب بهذا الاتصال.**

والتوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة، وهي القضية المشهورة في تاريخ الجدل في العالم كله، باسم قضية القضاء والقدر، أو الجبر والاختيار.
والإسلام يثبت للمشيئة الإلهية الطلاقة ويثبت لها الفاعلية التي لا فاعلية سواها، ولا معها، وفي الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية، ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية، وتفردها بالفاعلية الحقيقية، من وراء الأسباب الظاهرة، وذلك باعتبار أن النشاط الإنساني هو أحد هذه الأسباب الظاهرة.
ويقرأ الإنسان في القرآن الكريم مجموعات ثلاث متنوعة من الآيات، فيدرك منها سعة **مفهوم القدر** في التصور الإسلامي، مع بيان المجال الذي تعمل فيه المشيئة الإنسانية في حدود هذا القدر المحيط.
إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشأ وما يُخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرّف حياة الناس ويكيّفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله، كل شيء فيه مخلوق بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، **ولكن قدر الله في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات**

أنفسهم، وما يحدثون فيها من تغييرات (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).
إن المنهج الصحيح هو ألا نستمد تصوراتنا في هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة، بل أن نستمد من النصوص مقرراتنا العقلية في مثل هذه الموضوعات، وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الإلهية، في المجال الذي لا دليل لنا فيه، غير ما يطلعنا الله عليه منه.
وفق تصور المسلم لإلهه وعدله في جزائه، وشمول مشيئته وقدره، لابد من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل، يقوم عليه التكليف والجزاء، دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال المشيئة الإلهية المطلقة، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث.
أما كيف؟ فإن كيفيات فعل الله كلها، وكيفيات اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشاؤه كلها، ليس في مقدور العقل البشري إدراكها، والتصور الإسلامي يشير بتركها للعمل المطلق، والتدبير المطلق، مع الطمأنينة إلى تقدير الله وعدله ورحمته وفضله، **وبهذا وحده يقع التوازن في التصور، والتوازن في الشعور**، والاطمئنان إلى الحركة وفق منهج الله، والتطلع معها إلى حسن المصير.

أما "مشكلة الشر والألم"، فليست هناك مشكلة من وجهة النظر الإسلامية للأمر، فإن الإسلام يقول: **إن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وإن الآخرة دار حساب وجزاء**، والحياة في هذه الأرض مرحلة محدودة في الرحلة الطويلة. بهذا يحل الإسلام الجانب الشعوري من هذه المشكلة في الضمير البشري، ويسكب فيه الطمأنينة والاستقرار، فالألم الذي يلقاه الخيّر في هذه الأرض من جراء وجود الشر والنقص فيها، ليس هو كل نصيبه، فهناك النصيب الذي يعادل بين كفتي الميزان في شطري الرحلة، والشطران موصولان، تسيطر عليهما إرادة واحدة، ويحكم فيهما حكم واحد لا يند عن علمه شيء ولا يختل في ميزانه شيء.
ثم هو يخاطب الحقيقة الشعورية التي يجدها الإنسان في أعماق ضميره، وهي أن شعور المؤمن الخيّر الذي يحقق منهج الله في حياته، ويجاهد لتحقيقه في حياة البشر، يجد، وهو يعاني الألم من جانب الشر والأشرار، شعوراً مكافئاً من الرضى والسعادة في هذه الدنيا، قبل أن يجد جزاءه المدخر له في الآخرة،

شعوراً ناشئاً عن إحساسه بأنه يرضى الله فيما يفعل، وأن الله يرضى عن جهاده الخيّر (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

وليس لأحد من خلق الله أن يسأله لماذا شاء هذا ؟ لأن أحداً من خلقه ليس إلهاً، ولماذا، في هذا المقام، سؤال لا يسأله مؤمن جاد، ولا يسأله ملحد جاد، المؤمن الجاد لا يسأله، لأنه أكثر أدباً مع الله، الذي يعرفه من التصور الإسلامي بذاته وصفاته، ولأنه أكثر معرفة بمدى إدراكه البشري الذي لم يهيأ للعمل في هذا المجال، والملحد الجاد لا يسأله كذلك، لأنه لا يعترف بالله ابتداء، فإن اعترف بألوهيته عرف معها أن هذا شأنه سبحانه وأن هذا مقتضى ألوهيته، وأن اختياره هذا هو الخير قطعاً.
أما الشيطان، فالإسلام يقرر أنه أضعف من أن يكون مسلطاً على الإنسان تسليط قهر وغلبة، إنما هو تسليط امتحان وابتلاء، فهو يتمثل في المعركة بين الإنسان والشيطان، ودون الشيطان والغلبة في هذه المعركة حاجز قوي من الإيمان وذكر الله والاستعاذة به واللياذ بكنفه (إن كيد الشيطان كان ضعيفاً).

ويبقى بعد ذلك أنه إذا كان الله سبحانه هو الذي يخلق كل إنسان، باستعدادات معينة، هي التي تجعله يميل إلى الخير والهدى، أو يميل إلى الشر والضلال، فكيف يعذب الله الشرير الضال، ويكافئ الخيّر المهتدي، في الدنيا أو في الآخرة سواء؟ وهو سؤال خادع في صورته هذه، **يقابله ويصححه ما يقرره القرآن من أن الله سبحانه خلق الإنسان ابتداء في أحسن تقويم، وأنه لا يزول عن مكانه هذا إلا بغفلته عن الله، وأنه مبتلي بالخير والشر، وأن فيه الاستعداد للترجيح والاختيار مع الاستعانة بالله،** الذي يعين من يجاهد لرضاه (والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)، ويقابله كذلك ويصححه ما سبق تقريره من أن **قدر الله في الناس يتحقق فيهم من خلال إرادتهم في ذات أنفسهم، وفي الحياة من حولهم.**
إن التصور الإسلامي يعلّم المسلم أن الله فرض عليه تكاليف واضحة، ونهاه عن أمور كذلك واضحة، وهذه وتلك محددة لا شبهة فيها ولا غبش، وهذه وتلك هي التي يحاسبه عليها، أما أمر الغيب والقدر وما هو مخبوء وراء النظر، فأمور لم يكلف الله المسلم بالبحث فيها، ولم يأمره بشيء يتعلق بها، غير الاعتقاد بقدر الله خيره وشره.

طريق المسلم واضح، طريقه أن ينهض بالتكاليف الواضحة، ما استطاع، وأن يجتنب النواهي المحددة كما نُهي، وأن يشتغل بمعرفة ما أمر الله به، وما نهى الله عنه، ولا يبحث في شيء وراءهما من أمر الغيب المحجوب عن إدراكه المحدود، (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).
بهذا يتم التوازن في الاعتقاد والشعور، كما يتم التوازن في النشاط والحركة، فيثير التصور الإسلامي في الضمير الرغبة في الخير والاستقامة، وفي الحركة والفاعلية، مع الاستعانة بالله الذي بيده كل شيء.
وبهذا يقطع التعطيل والإرجاء والسلبية، والإحالة على مشيئة الله في المعصية، أو الشلل والجمود والسلب.

والتوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، ومقام الإنسان الكريم في الكون، وقد سلم التصور الإسلامي في هذا الصدد من تأليه الإنسان في صوره الكثيرة، وتحقير الإنسان إلى حد الزراية والمهانة.
إن الإسلام يبدأ فيفصل فصلاً تاماً كاملاً بين حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وبين مقام الألوهية ومقام العبودية، وبين خصائص الألوهية وخصائص العبودية، بحيث لا تقوم شبهة أو غبش حول هذا الفصل الحاسم الجازم، الله **(ليس كمثله شيء)**، فلا يشاركه أحد في ماهية أو حقيقة، والله **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن)**، فلا يشاركه أحد في وجود، وهكذا في كل خاصية من خصائص الألوهية، والإنسان عبد لله ككل مخلوق في هذا الوجود.
ولكن الإنسان، بعبوديته هذه لله، كريم على الله، فيه نفخة من روح الله، مكرم في الكون، حتى ليأمر الله الملائكة، وهم عباده المقربون، أن يسجدوا له سجود التكريم، وهو مستخلف في هذه الأرض، مسلط على كل ما فيها، مسخر له الأرض وما فيها، ومحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون.
والإنسان يكون في أرفع مقاماته، وفي خير حالاته، حين يحقق مقام العبودية لله، إذ أنه في هذه الحالة يكون في أقوم حالات فطرته، وأحسن حالات كماله، وأصدق حالات وجوده (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).
ومن ثم فإنه لا تعارض في التصور الإسلامي بين رفعة الإنسان وعظمته وكرامته وفاعليته، وبين عبوديته لله سبحانه، وتفرد الله بالألوهية وبخصائصها جميعاً.

إن الله سبحانه والإنسان ليسا كفوين، ولا ندين، ولا متصارعين، ولا يرجح أحدهما ليزيح الآخر، ولا يغلب أحدهما ليهزم الآخر. لقد تركت الأساطير الإغريقية، والأساطير العبرية، هذا التصور القبيح التافه في أذهان الأوروبيين، فظل يسيطر على تصوراتهم، حتى بعد ما دخلوا في المسيحية.
إن أي استعارة من تلك التصورات، أو مناهج التفكير، أو نتاجها من المذاهب والأفكار، تحمل في صميمها عداء طبيعياً للتصور الإسلامي، وللفكر الإسلامي، ولا تصلح بتاتاً للاقتباس منها أو الاستعانة بها.

والتوازن في علاقة العبد بربه، بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال، وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس، فصفات الله الفاعلة في الكون، وفي حياة الناس والأحياء، تجمع بين هذا الإيحاء وذاك، في توازن تام.
ويقرأ المسلم في كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يخلع القلوب، ويزلزل الفرائص، ويهز الكيان، وصور العذاب في مشاهد القيامة رعيبة رعيبة، ويقرأ المسلم كذلك من صفات ربه، ما يملأ قلبه طمأنينة وراحة، وروحه أنساً وقرباً، ونفسه رجاء وأملا، وصور النعيم في مشاهد القيامة رخية رخية.
ومن هذا وذاك يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس، والفزع والطمأنينة.

والتوازن بين مصادر المعرفة : من الوحي والنص، ومن الكون والحياة.
فأما الإسلام في شموله، وفي توازنه، وفي اعتباره لجميع "الحقائق" الواقعة، دون تعسف، ودون هوى، ودون شهوة، ودون غرض، ودون جهل، ودون قصور، فلم يغفل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره، ولم يضعه في مكانه الذي يستحقه، ودرجته التي هي له في الحقيقة، في دقة وتوازن وطمأنينة.
نعم إن الإسلام يعتبر مصدر الوحي هو المصدر الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يخضع للهوى، ولا يتأثر به، ومن ثم فهو أعلى المصادر. **ولكنه في الوقت ذاته لا يلغي العقل** ولا يلغي المؤثرات والمعارف التي تتلقاها الكينونة الإنسانية كلها، مما حولها في الكون، **مع فارق واحد**: هو أن المعرفة التي يتلقاها الإنسان بمداركه من هذا الكون، قابلة للخطأ والصواب، بما أنها من عمل الإنسان، أما ما يتلقاه من الوحي فهو الحق اليقين.

إن الإسلام بناء على تقريره أن هناك اتفاقاً وتناسقاً بين الكون والإنسان، جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة لهذا الإنسان، بعد الوحي، ووجه الإنسان إلى التلقي عنه سبحانه ابتداءا، ثم عن خلقه – أو عن كتاب الكون المفتوح – وعن الإنسان ذاته، فهو مصدر من مصادر التأمل والمعرفة لذاته.
وهكذا تتوازن هذه المصادر، كل بحسبه، وتتناسق في إمداد الكائن الإنساني بالمعرفة، ويتوازن التصور الإسلامي، فلا يشط ولا يضطرب ولا يتأرجح بين هذه المصادر، ولا يؤلّه ما ليس منها بإله.
ومن ثم يكثر التوجيه إلى هذه المصادر، والظاهرة في الكون، والمكنونة في النفس، لتلقي المعرفة من كتاب الله المفتوح، كتلقي المعرفة من كتاب الله المقروء، في تناسق وتوازن، يجمع ين مصادر المعرفة كلها، في غير تصادم ولا تعارض، وفي غير تأليه ولا تحقير، وفي غير خصومات كتلك الخصومات التي رأينا أمثلة منها في تاريخ الفكر الغربي.

والتوازن بين فاعلية الإنسان وفاعلية الكون، وبين مقام الإنسان ومقام الكون.
وتتضح استقامة التصور الإسلامي تجاه الكون والإنسان، حين يراجع ركام الفلسفات والتصورات والمعتقدات المختلفة، يقف التصور الإسلامي على قاعدة الحقيقة المستقرة الثابتة، الله هو الخالق المبدع المهيمن المدبر، والكون والإنسان من إبداع الله، وبينهما من التفاعل، وبينهما من التناسق، ما يجعل لكل منهما دوراً في حياة الآخر، والإنسان هو الأكرم، وهو الأكثر فاعلية وإيجابية، وهو المسلط على المادة، يبدع فيها وينشئ، ويغيّر فيها ويطوّر، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله، ويتلقى من هذه الأسرار ما يؤدي إلى العظة والاعتبار.

الخاصية الخامسة : الإيجابية

الإيجابية الفاعلة في علاقة الله سبحانه بالكون والحياة والإنسان، والإيجابية الفاعلة كذلك من ناحية الإنسان ذاته، في حدود المجال الإنساني. إن الصفات الإلهية في التصور الإسلامي ليست صفات سلبية، والكمال الإلهي ليس في الصورة السلبية التي جالت في تصورات الفلاسفة ولا منحرفي العقائد.

إن الإنسان في التصور الإسلامي يتعامل مع إله موجود، خالق، مريد، مدبر، مهيمن، قادر، فعال لما يريد، كامل الإيجابية والفاعلية، إليه يرجع الأمر كله، وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء، وكل انبثاقة فيه بعد ذلك، وكل حركة، وكل تغير وكل تطور، ولا يتم في هذا الكون شيء، إلا بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره، وهو سبحانه مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده، في كل حال من أحواله، ولكل حي، ولكل شيء في هذا الوجود كذلك.

ويحفل القرآن الكريم بتقرير هذه الحقيقة الأساسية الكبيرة في التصور الإسلامي، بكل صورها وأشكالها، ويهتم بعرض مظاهرها في كل جانب من جوانب الكون، وفي كل صورة من صورها المتجددة التي لا تحصى.

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الإنسان وفي حياته، يتوقف عليه كل شيء في أمر العقيدة، كما أنه هو الذي يمد الحياة البشرية بكافة المشاعر الأخلاقية، بواعثها وموازينها، والسلطان القائم عليها.

إن هذه الإيجابية في علاقة الله سبحانه بخلائقه كلها، هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة، والعقيدة الصورية السلبية، وشمول هذه الإيجابية وتوحدها، هو مفرق الطريق كذلك، بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني، والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوي، وتصور الإنسان لإلهه، وتعلق صفاته بالحياة الإنسانية، هو الذي يحدد قيمة هذا الإله في نفسه، كما يحدد نوع استجابته لهذا الإله.

وفرق كبير بين الإنسان الذي يتصور أن إلهه لا يحفل به، ولا يحس بوجوده، أو يتعامل مع إلهين متنازعين، أو يتعامل مع إله شهواني متعجرف ظالم متهور، أو الذي يظن أن إلهه هو "الطبيعة" الخرساء الصماء، التي لا تطالبه بعقيدة ولا شعيرة، ولا منهج ولا نظام حياة، ولا خلق ولا أدب، ولا ضمير ولا سلوك، ولا تحس بوجوده أصلاً، وليس لها هي إدراك ابتداء، كما تناولت الفلسفات الألوهية، **وبين الإنسان الذي يعرف أن إلهه "الله" الحي الذي لا يموت، الصمد المقصود في الحاجات، الرقيب الذي لا يغفل،** الحسيب الذي لا ينسى، العادل الذي لا يظلم، الرحيم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، إلى آخر صفات الله وأسمائه الحسنى.

إن الأمر مختلف جداً، ولقد عنى الإسلام عناية بالغة بتقرير هذه الحقيقة في تصور المسلمين وتوكيدها، وتقرير وجود الله سبحانه في حياتهم وتوسيعه وتعميقه، وكانت حياة الجماعة المسلمة الأولى في ظلال الوحي المتلاحق،

المتعلق بواقع حياتهم، وبما يهجس كذلك في ضمائرهم، مثلاً حياً، وترجمة عملية لهذه الحقيقة، (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله)، (عبس وتولى)، (إلا تنصروه فقد نصره الله)، (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون).
ولم يكن هذا التدخل الإيجابي وقفاً على هذه المجموعة من المسلمين، فهو شأن الله في كل موقف، وفي كل أمر، وفي كل حال، وقد كان منه ما كان في شأن الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام، (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)، (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر)، (قلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)، وكذلك في أمر الكون كله والخلائق والأحياء فيه، (وكأيٍّ من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)، (أفرأيتم ما تحرثون)، **فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير وليس مجرد التوحيد السلبي.**

والصفحة الأخرى للإيجابية في التصور الإسلامي، هي إيجابية الإنسان في الكون، وإيجابية المؤمن بهذه العقيدة في واقع الحياة على وجه خاص، والمؤمن بهذا الدين ما يكاد الإيمان يستقر في ضميره حتى يحس أنه قوة فاعلة مؤثرة، فاعلة في ذات نفسه، وفي الكون من حوله.
وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون، ذكر العمل، الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان، فليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو مشاعر تُفرَّغ في حركة، لإنشاء واقع، وفق التصميم الإسلامي للحياة، أو وفق التصور الإسلامي للحياة، (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)، (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)، (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى).
فليس هنالك إيمان هو مجرد مشاعر في الوجدان، أو تصورات في الذهن، لا ترجمة لها في واقع الحياة، وليس هنالك إيمان هو مجرد شعائر تعبدية ليس معها عمل يكيف منهج الحياة كله ويخضعه لشريعة الله.
ثم يحس المسلم، من وحي تصوره الإسلامي، أنه (شخصياً) مطالب بأداء شهادة لهذا الدين، لا يستريح ضميره، ولا يطمئن باله، ولا يستشعر أنه أدّى حق نعمة الله عليه بالإسلام، وأنه يطمع من ثم في النجاة من عذاب الله في

الدنيا والآخرة، إلا أن يؤدي هذه الشهادة كاملة، بكل تكاليفها في النفس والجهد والمال.
وهو يؤدي هذه الشهادة، أولاً، في ذات نفسه، بأن يطابق بين واقع حياته الشخصية، في كل جزئية من جزئيات نشاطه، وبين مقتضيات التصور الذي يقوم عليه اعتقاده، شهادة العمل المصدق للإيمان، المجسّم للعيان، المنشئ لآثاره في عالم الواقع وفي دنيا الناس.
وهو يؤديها، ثانية، في دعوة الآخرين إلى هذا المنهج، وبيانه لهم، مسوقاً بدوافع كثيرة **أولها**: دافع أداء الشهادة لينجو من الله، وليؤدي حق نعمته عليه بهدايته إلى الإسلام، **وثانيها**: حب الخير للناس، وهدايتهم إلى هذا الخير الذي هُدِيَ هو إليه، لأنه يتعلم من هذا التصور ذاته أن البشر كلهم إخوة، **وثالثها**: شعوره بأن تبعة ضلال الناس (إذا ضلوا) إنما تقع على عاتقه هو، ما لم يبين لهم، وهي تبعة ثقيلة تنوء بضميره، وتنوء بكاهله، وقد علم أنها تبعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأنه هو مستخلف فيها عن الرسل، ومسؤول عنها بعدهم.
وهو يؤديها، أخيراً، بالعمل على تحقيق منهج الله في حياة الناس، وإقامة النظام الذي ينبثق من ذلك التصور، وإقامة حياة الجماعة الإنسانية على أساس هذا النظام، باعتبار أن هذا التصور هو "تصميم" لعالم واقعي، يراد إخراجه وتحقيقه، ليتحقق وجود الإسلام في الأرض، ولتخلص الألوهية لله، **إذ لا وجود للإسلام بدون قيام مجتمع يعيش بهذا النظام، ويعترف لله وحده بالألوهية،** فلا يتلقى في منهج حياته الأساسي إلا من الله، ثم ليستحق المسلمون نصر الله وتأييده الذي وعدهم إياه.

إن الإنسان قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وليس عاملاً سلبياً في نظامها، فهو مخلوق ابتداء ليستخلف فيها، وهو مستخلف فيها ليحقق منهج الله في صورته الواقعية : لينشئ ويعمر، وليغيّر ويطوّر، وليصلح، وينمّي، وهو معانٌ على هذه الخلافة، معانٌ من الله سبحانه بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه معاونة له، وهو مُعان من الله كذلك بما وهبه من القوى والاستعدادات الذاتية، وهو يكلفه أمر الخلافة.
وشعوره بأنه مكلف بالعمل، ومعانٌ عليه، ينفي عنه الشعور بالسلبية في نظام هذا الكون، إذ يعلّمه أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله، عن طريق

حركته هو ذاته، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض).
كما يعلّمه ان الله لا يرضى منه الشعور في الضمير، والكلمة على اللسان، ولا يدعه حتى يترجم ذلك في حياته واقعاً، يحاسبه عليه، ويجازيه بحسبه، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

الخاصية السادسة : الواقعية

فهو تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات لا مقابل لها في عالم الواقع، أو لا وجود لها في عالم الواقع.
ثم إن "التصميم" الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية، **ولكنها في الوقت ذاته واقعية مثالية، أو مثالية واقعية**، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى وأكمل نموذج، تملك البشرية أن تصعد إليه.

<u>أولا : يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي :</u>
يتعامل مع الحقيقة الإلهية، متمثلة في آثارها الإيجابية، وفاعليتها الواقعية.
ويتعامل مع الحقيقة الكونية، متمثلة في مشاهدها المحسوسة، المؤثرة أو المتأثرة.
ويتعامل مع الحقيقة الإنسانية، متمثلة في الأناسّي كما هم في عالم الواقع.

1- **الإله الذي يتعامل معه هذا التصور هو "الله" المتفرد بالألوهية، وبكل خصائص الألوهية.**

ولكن هذه الخصائص كلها من عالم الواقع، ذات أثر في عالم الواقع، يمكن إدراك آثارها الواقعية، ولا يضرب العقل البشري في التيه ليتمثلها على هواه.
وهكذا يتعامل التصور الإسلامي مع إله "موجود"، يدل خلقه على وجوده، "مريد"، "فعال لما يريد"، تدل حركة هذا الكون وما يجري فيه على إرادته وقدرته، ومن ثم يفترق تصور الإله في الإسلام افتراقاً رئيسياً عنه في

تصورات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين. تشتط هذه التصورات في "مثالية" لا رصيد لها من الواقع، لأنها لم تؤخذ من الواقع، إنما أخذت من التجريد العقلي، والفروض العقلية، وتنتهي هذه المثالية إلى نقص وعجز في تصور الكمال الإلهي. أما الحقيقة الإلهية في التصور الإسلامي، فحقيقة فاعلة في هذا الوجود، وتلتمس خصائصها وصفاتها في آثارها الواقعية في هذا الوجود، وهذا ما يفصله القرآن الكريم وهو يصف الحقيقة الإلهية للناس، وهو يعرّفهم بربهم تعريفهاً يسيراً عميقاً واضحاً، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس، في منطق فطري واقعي جميل.

2- بمثل هذه الواقعية يواجه التصور الإسلامي الكون :

فهو يتعامل مع هذا الكون الواقعي الممثل في أجرام وأبعاد، وأشكال وأوضاع، وحركات وآثار، وقوى وطاقات، لا مع الكون الذي هو "فكرة" مجردة عن الشكل والقالب.

الكون هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان، ويوجه إليه قلبه وعقله في القرآن، هو هذه السماوات والأرض، هذه النجوم والكواكب، هذه الكائنات الميتة والحية. والظواهر الكونية هي هذه الحياة وهذا الموت، وهذا الليل وهذا النهار، وهذا النور وهذا الظلام، وهذا المطر والبرق والرعد، وهذا الظل وهذا الحرور، وهذه الأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي، وذات الآثار الحقيقية.

الكون في التصور الإسلامي هو هذه الخلائق التي أبدعها الله، وقال لها: كوني فكانت، والتي نسقها الله بحيث لا تتعارض ولا تتصادم، والتي هي خاضعة لله، عابدة له، مسخرة لأمره، مؤدية لما أراده منها، ولما سخرها له، على أحسن وجه من الأداء.

3- كذلك يتعامل التصور الإسلامي مع الإنسان :

مع هذا الإنسان الواقعي، الممثل في هؤلاء البشر كما هم، بحقيقتهم الموجودة، مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والكينونة الخاصة، الإنسان من لحم ودم وأعصاب، وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والأشواق، والرغائب والضرورات، الإنسان الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويحيا ويموت، ويبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويطمع وييأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويكفر، ويهتدي ويضل، ويعمر الأرض أو يفسد فيها ويقتل الحرث والنسل، إلى آخر سمات الإنسان الواقعي، وصفاته المميزة.

ثانيا : المدلول الثاني للواقعية في التصور الإسلامي، ويتعلق بطبيعة المنهج الذي يقدمه للحياة البشرية، وواقعية هذا المنهج، مع طبيعة الإنسان، وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته في الكون، ومدى طاقاته الواقعية الحقيقية :

إن الإنسان في التصور الإسلامي هو هذا الإنسان الذي نعهده، إنه ليس الإنسان كما يريده خيال جامح، أو كما يتمناه حلم سابح مع الرؤى والأشباح، وليس الإنسان الذي يصوغه ذهن تجريدي، **إنه الإنسان الذي خلقه الله ليستخلفه في هذه الأرض، فيقوم فيها بالخلافة الحركية الإيجابية**، التي تنشئ وتبدع في عالم المادة ما يتم به قدر الله في الأرض والأحياء والناس.

والمنهج الإسلامي للحياة، على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته، هو في الوقت ذاته منهج لهذا الإنسان في حدود طاقاته الواقعية، ونظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش على هذه الأرض، ويأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج ويتناسل، ويحب ويكره، ويرجو ويخاف، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله، وهو يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان، وطاقاته واستعداداته، وفضائله ورذائله وقوته وضعفه.

ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، وأكمل وضع، يبلغ إليه الإنسان، في أي زمان وفي أي مكان.

وكلما مضينا هكذا مع النصوص القرآنية التي تقرر تكاليف الحياة الإسلامية، وتضع حدود المنهج الإسلامي للحياة، لاحظنا "الواقعية" في هذا المنهج وانطباقها على واقعية الفطرة الإنسانية، وحدود طاقاتها الموهوبة لها، وحدود الاستعدادات المهيأة للعمل والنشاط، بحيث لا تكبت طاقة واحدة، ولا تكف عن العمل، وبحيث لا تكلف كذلك أكبر من وسعها، ولا تكلف ما ليس من طبعها وفطرتها.

إن الإسلام دين للواقع، دين للحياة، دين للحركة، دين للعمل والإنتاج والنماء، دين تطابق تكاليفه للإنسان فطرة هذا الإنسان، بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية عملها الذي خلقت من أجله، وفي الوقت ذاته يبلغ الإنسان أقصى كماله الإنساني المقدر له، عن طريق العمل والحركة، وتلبية الطاقات والأشواق، لا كبتها أو كفها عن العمل، ولا إهدار قيمتها واستقذار دوافعها،

ومن ثم تتحقق صفة "الواقعية" للمنهج الإسلامي الموضوع للحياة البشرية، تحققها للتصور الإسلامي ذاته عن الله والكون والحياة والإنسان، ويتطابق التصور الاعتقادي والنهج العملي في هذا الدين تطابقاً لا تفاوت فيه.

الخصيصة السابعة : التوحيد

التوحيد هو المقوّم الأول للتصور الإسلامي، بما أنه هو الحقيقة الأساسية في العقيدة الإسلامية، ولكنه كذلك هو إحدى خصائص هذا التصور، والتي تبين نوع تفرد التصور الإسلامي بهذه الخاصية، من بين سائر التصورات الاعتقادية والفلسفية السائدة في جنبات الأرض.

إن "التوحيد" كان هو "الخاصية" البارزة في كل دين جاء به من عند الله رسول، كما أنه كان "المقوّم الأول" في دين الله كله، و"الإسلام"، على إطلاقه، كان هو الدين الذي جاء به كل رسول، بما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده، واتباع منهج الله وحده في كل شؤون الحياة، والتلقي من الله وحده في هذه الشؤون كلها، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه، والعبادة لله وحده سواء في الشعائر التعبدية أو في نظام الحياة الواقعية.
لقد امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة على حياته هو بحذافيرها، كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها: خافيها وظاهرها، صغيرها وكبيرها، حقيرها وجليلها، شعائرها وشرائعها، اعتقاديها وعمليها، فرديها وجماعيها، دنيويها وأخرويها، بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة.

يقوم التصور الإسلامي على أساس أن هناك ألوهية وعبودية، ألوهية يتفرد بها الله سبحانه، وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه، فهناك إذن وجودان متميزان، وجود الله ووجود ما عداه من عبيد الله.
هذه هي القاعدة الأولى في التصور الإسلامي، ومنها تنبثق وعليها تقوم سائر القواعد الأخرى، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة، ويؤكدها، ويكررها في قصة كل رسول، كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين، ولكن هذا

التوحيد الذي جاء به الرسل جميعاً، حرف ودخلت فيه الأساطير في شتى المعتقدات، سواء في الديانات التي تنسب إلى السماء، أو في الوثنيات التي اختلطت فيها بقايا الديانات السماوية بالأساطير في شتى الأزمان.
إن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد الذي بقي قائماً على أساس التوحيد الكامل الخالص، وإن التوحيد خاصية من خصائص هذا التصور، تفرده وتميزه من بين سائر المعتقدات السائدة في الأرض كلها على العموم.
إن هناك ألوهية وعبودية، ألوهية يتفرد بها الله، فهو سبحانه واحد في ذاته، متفرد في كل خصائصه، وهو خالق كل شيء، وهو مالك كل شيء، وهو الرازق لكل من خلق وكل ما خلق، وهو مدبر كل شيء ومصرف كل شيء وحافظ كل شيء، وهو صاحب السلطان المسيطر القاهر على كل شيء، وكل خلائق الله تقر له بالعبودية والطاعة والقنوت.

إن من مقتضيات توحيد الألوهية في التصور الإسلامي إفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر، كإفراده سبحانه بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء.
كذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الإنسان من جنسه إلا الله، فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة، ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات، سواء.
فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية، والطلب والرجاء والخشية والتقوى، كالتلقي من الله وحده في التشريع والتوجيه، ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات، كلاهما من مقتضيات التوحيد.

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الضمير وفي الحياة ربطاً وثيقاً، ويرتب على وحدانية الألوهية والربوبية، ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود، كل ما يكلّفه المسلم، سواء ما يكلفه من شعور في الضمير، أو ما يكلفه من شعائر في العبادة، أو ما يكلفه من التزام في الشريعة.
(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)، (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم)، ونص على أن الشرع هو الدين، وأمر الرسول

صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى ما شرع الله من الدين والاستقامة عليه، ونهاه عن اتباع أهواء الناس.

إن هذا التصور ينشئ في العقل والقلب آثاراً متفردة، حالة من الانضباط لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك. فالذي يتصور الألوهية على هذا النحو، ويدرك حدود العبودية كذلك، يتحدد اتجاهه، كما يتحدد سلوكه، ويعرف على وجه الضبط والدقة: من هو؟ وما غاية وجوده؟ وما حدود سلطاته؟، كما يدرك حقيقة كل شيء في هذا الكون، وحقيقة القوة الفاعلة فيه، ومن ثم يتصور الأشياء ويتعامل معها في حدود مضبوطة، لا تميع فيها ولا تأرجح، وانضباط التصور ينشئ انضباطاً في طبيعة العقل وموازينه، وانضباطاً في طبيعة القلب وقيمه، والتعامل مع سنن الله بعد ذلك والتلقي عنها يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقويه.

إن هذا التصور لينشئ في القلب والعقل "الاستقامة".
والمسلم يعرف من تصوره لربه، وعلاقته به، ما يحب ربه وما يكره منه، ويستيقن أن لا سبيل له إلى رضاه إلا الإيمان به، ومعرفته بصفاته، والاستقامة على منهجه وطريقه، فهو لا يمت إليه سبحانه ببنوة ولا قرابة، ولا يتقرب إليه بتعويذة ولا شفاعة، ولا يعبده إلا بامتثال أمره ونهيه، واتباع شرعه وحكمه، ومن شأن هذه المعرفة أن تنشئ الاستقامة في قلبه وعقله، الاستقامة باستقامة التصور، والاستقامة باستقامة السلوك.
إن سائر التصورات كلها، خلاف الإسلام، لا يمكن أن توحي لأصحابها بضبط ولا استقامة في تصور أو في سلوك، كما أنها جميعاً تتسم بالغموض والتعقيد والتخليط، **ومن ثم كان أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية، هو الاستقامة والبساطة والوضوح،** لأنها سمة الفطرة التي يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين.

وإن هذا التصور ليكفل تجمع الشخصية والطاقة في كيان المسلم الفرد والجماعة، وينفي التمزق والانفصام والتبدد، التي تسببها العقائد والتصورات الأخرى.

فالكينونة الإنسانية تواجه ألوهية واحدة تتعامل معها في كل نشاط لها، تتعامل مع هذه الألوهية اعتقاداً وشعوراً، وتتعامل معها عبادة واتجاهاً، وتتعامل معها تشريعاً ونظاماً، وتتعامل معها في الدنيا والآخرة أيضاً.
إنها لا تتوزع في الاعتقاد بآلهة مختلفة، أو بعناصر مختلفة في الألوهية الواحدة، أو بقوى مختلفة بعضها داخل في حوزة الإله وبعضها خارج عليه مضاد له، وهي لا تتوزع في التوجه بالاعتقاد والشعور والعبادة إلى جهة، والتلقي في نظام الحياة الواقعية إلى جهة أخرى، إنما هي تتلقى من مصدر واحد في هذا وذلك، وتتبع ناموساً واحداً يحكم الضمير والشعور، كما يحكم الحركة والعمل، **وهذا التجمع ينشئ طاقة هائلة، لا يقف في وجهها شيء، وهذا بعض أسرار الخوارق التي أنشأتها العقيدة الإسلامية في الحياة والتاريخ البشري.**

ثم نجئ إلى الأثر المتفرد الذي ينشئه التصور الإسلامي في ضمير المسلم وفي حياته، وفي كيان المجتمع المسلم وفي نشاطه بخاصية التوحيد التي يتضمنها ويقوم عليها، إنه تحرير الإنسان، أو هو بتعبير آخر، ميلاد الإنسان.
إن توحد الألوهية وتفردها بخصائص الألوهية معناه ومقتضاه : ألا يتلقى الناس الشرائع في أمور حياتهم إلا من الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر إلا لله، توحيداً للسلطان الذي هو أخص خصائص الألوهية، والذي لا ينازع الله فيه مؤمن، ولا يجترئ عليه إلا كافر، والنصوص القرآنية تؤكد هذا المعنى وتحدده وتجرده، بما لا يدع مجالاً لشك فيه أو جدال (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله)، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).

وفي آية التوبة (**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)،** فأهل الكتاب الذين تتحدث عنهم الآية، اتخذوا المسيح ابن مريم رباً بمعنى ربوبية العبادة والشعائر، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، لا بهذا المعنى ولكن بمعنى التلقي عنهم في الشرائع والأوامر، ولكن الآية جمعت بين اتخاذهم المسيح ربا واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً، وقررت أن هذا كله مخالف لما

أمروا به من عبادة إله واحد، ودمغتهم بالشرك بسبب اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً للتشريع، ولهذا دلالته التي لا تقبل الجدال.
روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه (.. فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: (بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم). وقال السدى في تفسير ذلك: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.
والتصور الإسلامي بهذا القطع الحاسم في هذه المسألة يعلن "تحرير الإنسان" بل يعلن، "ميلاد الإنسان"، إنه بهذا الإعلان يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وهذا هو الجديد الذي يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم، كما تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد.

لقد قال ربعي ابن عامر لرستم قائد الفرس: الله ابتعثنا، لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.
وفي هذه الكلمات القلائل تتركز قاعدة هذه العقيدة، وتتجلى طبيعة الحركة الإسلامية التي انبثقت منها، وانطلقت بها.
وأصحاب عقيدة التوحيد، حين يفيئون إلى منهج الله الذي من به عليهم وينادون به، يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشيء الذي تفقده جميع المناهج والمذاهب والأنظمة والأوضاع في الأرض كلها بلا استثناء، ومن ثم يكون لهم اليوم وغداً دور جديد، ودور عالمي إنساني كبير، ودور قيادي أصيل في التيارات العالمية الإنسانية، ودور يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، كالدور الذي منح العرب الأميين في الجزيرة العربية سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، وللقيادة العالمية الإنسانية.

معـــــالم في الطريق

المقدمة

أفلس العالم الغربي وكذلك الشرقي لا في عالم المادة بل في عالم القيم والمباديء، وسقطت النظريات والوطنيات والقوميات، وأدت النهضة العلمية دورها وفشلت الأنظمة الفردية والجماعية، وجاء دور الإسلام والأُمة المسلمة لتقود البشرية دون تنكر للإبداع المادي.

إن المسافة بين محاولة البعث وتسلم القيادة مسافة بعيدة ولكن محاولة البعث هي الخطوة الأولى الأساسية.

إن الأُمة المسلمة هي جماعة من البشر تنبثق تصوراتهم وحياتهم وانظمتهم وقيمهم وموازينهم من الإسلام، وهذه الأُمة قد انقطع وجودها في الأرض منذ فترة، ولا بد من بعث وإعادة وجود لهذه الأُمة، فالبشرية لن تستجيب إلا بوجود هذه الأُمة.
هذه الأمة لا تملك الآن (وليس مطلوباً منها الآن) التفوق الخارق في عالم المادة (ولا يعني ذلك إهماله)، والمؤهل لقيادة البشرية هو العقيدة والمنهج والمجتمع المسلم.

العالم اليوم يعيش في جاهلية تقوم على الاعتداء على خصائص الألوهية وأهمها الحاكمية. الناس في كل نظام غير الإسلام يعبد بعضهم بعضاً في صورة من الصور، وفي الإسلام وحده يتحرر الناس من ذلك بعبادة الله وحده والتلقي منه والخضوع له وحده، وهذا هو التصور الذي يمكن إعطاؤه للبشرية، هو وما يترتب عليه من آثار عميقة في الحياة.
لكي تتم عملية البعث لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة وتمضي في الطريق تنعزل (انعزال عدم التأثر والمجاراة) وتتصل بالجاهلية حولها (اتصال دعوة وبيان ثم مواجهة وجهاد).

ولا بد لهذه الطليعة من معالم تعرف منها نقطة البدء وطبيعة الدور وصلب الغاية وطبيعة موقفها من الجاهلية حولها، ولا بد لهذه المعالم أن تستمد من المصدر الأول للدعوة : من القرآن.

[1] جيل قرآني فريد

ظاهرة تاريخية أنه **لم يتكرر في التاريخ جيل كجيل الصحابة** مع أن القرآن والسنة بين أيدينا، ولو كان وجود النبي صلى الله عليه وسلم شرطا لما جعل الله هذا الدين الدين الخاتم إلى قيام الساعة.

السبب الأول: كان النبع الذي استقى منه الصحابة القرآن وحده بالرغم من وجود حضارات وأديان أخرى في ذلك الوقت. (غضب النبي من عمر) وكان صلى الله عليه وسلم يقصد نقاء المصدر وخلوص القلب والتصور من أي مؤثر آخر. وكان اختلاط ذلك النبع مع غيره بعد ذلك عاملاً أساسياً في الخلل في الأجيال التالية.

السبب الثاني: منهج التلقي (ليس بقصد الثقافة أو التذوق وإنما بقصد العمل والالتزام بالتكليف)، فمنح القرآن كنوزه لهم، فلما تغير منهج التلقي بعد ذلك اختلفت الأجيال التالية.

السبب الثالث: العزلة الشعورية والانعزال عن قيم وقواعد وموازين الجاهلية.

لابد في فترة الحضانة والتكوين من التجرد من كل مؤثرات الجاهلية، والرجوع إلى القرآن وحده بشعور التلقي للتنفيذ والعمل (صناعة البيئة التربوية ومتابعتها).

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع وليس الصلح معه أو الولاء له. لا بد أن نستعلي على الجاهلية ولا نتنازل، وأن نتحمل ما سنتعرض له في سبيل ذلك.

[2] طبيعة المنهج القرآني

ظل القرآن المكي طوال 13 عام يعالج قضية واحدة هي العقيدة وعلاقة الإنسان بالخالق وبالوجود كله، وعلى الدعاة أن يقفوا طويلا أمام هذا الأمر

خاصة **وأن مدخل لا إله إلا الله أصعب وأشق مدخل للعرب لأنهم يعرفون معناها.**

ربما قيل كان من الممكن **أن تثار قومية عربية** ضد الرومان والفرس المستعمرين حتى التحرير ثم يتم عرض العقيدة بعد ذلك، لكن الله يعلمنا أن الطريق ليس في أن نتخلص من طاغوت إلى يد طاغوت آخر، وإنما أن نعبد الله وحده بكل ما تحمل الكلمة من معاني.

ربما قيل كان من الممكن **إثارة حرب اجتماعية** ضد الأشراف والأغنياء فتجتمع إليه الكثرة ضد القلة، وبعد النصر تعرض العقيدة، لكن الله يعلمنا أن العدالة الاجتماعية لابد أن تنبثق من تصور عقيدي كامل.

ربما قيل كان من الممكن **إعلان دعوة أخلاقية إصلاحية** ثم تصبح القلوب أقرب إلى العقيدة، لكن الله يعلمنا أن الأخلاق لا تقوم إلا على ميزان العقيدة الثابت، ورقابة الله سبحانه وتعالى.

تعليق وإضافة : لا يمكن أن ندعو الناس ونقيم الإسلام: بتجميعهم خداعا على أمر ما ثم التحول إلى الإسلام بعد ذلك، فذلك غير جائز أولا، ثم لن يستجيب الناس أو أغلبهم لنا فنفشل ثانيا، ثم إن مثل هؤلاء لا يصلحون لإقامة دين ودولة له، كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم.

لما تقررت العقيدة بعد الجهد الشاق تحققت كل هذه الأمور، وارتفعت البشرية إلى القمة، لأن الصحابة أقاموا هذا الدين وعقيدته في ضمائرهم وحياتهم وفرغت نفوسهم من كل شيء، فأصبحوا أمناء على العقيدة وعلى السلطان، ولم يكن ذلك ليحدث لولا البدء بالعقيدة ولا شيء معها أو سواها.

تناول القرآن المكي لقضية العقيدة بدون تشريعات أمر هام، لأن العقيدة هي الأساس، فإن استقرت في النفوس فستستسلم هذه النفوس ابتداء لتشريع ونظام هذا الدين أياً كان، وهذا ما حدث.

هذا الدين ليس نظرية تتعامل مع فرض، ولكنه منهج عملي حركي جاد يتعامل مع الواقع، فلا بد أن يقوم المجتمع المسلم أولا، فيحتاج إلى تشريع وتنظيم، لذلك لم تنزل التشريعات في مكة.

إن الذين يريدون أن يصوغ الإسلام نظريات وتشريعات لا يدركون طبيعة هذا الدين.

يجب دعوة الناس (حتى المسلمين) إلى الاعتناق الكامل والصحيح للعقيدة، ومدلول لا إله إلا الله الكامل، **فإذا اعتنقت فئة العقيدة بمعناها الكامل فقد بدأ المجتمع المسلم، وهنا يبدأ الإسلام في حل المشكلات الواقعية لهذا المجتمع.**
ويظن البعض أن عرض أسس النظام الإسلامي قد ييسر طريق الدعوة وهذا غير صحيح، لأن **قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده أياً كان ورفض غيره أياً كان هو ذاته الإسلام**، فمن آمن بذلك فليس في حاجة إلى تجميل الإسلام.
لم يعالج الإسلام قضية العقيدة في صورة نظرية أو لاهوتية أو جدل ذهني منطقي، **وإنما خاض معركة ضخمة مع الجاهلية حول الجماعة المسلمة، ومع رواسب الجاهلية في نفوس المسلمين.**

إن بناء العقيدة فى مكة لم ينفصل عن التكوين العملى للحركة، والواقعي كذلك. إنه يجب أن تطول مرحلة بناء العقيدة فى عموم وتثبيت.

أراد الله أن يبنى الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبنى العقيدة بالجماعة والحركة، فتصبح الجماعة فى واقعها هى المظهر الواقعى لنضج التكوين العقيدي.
إن كل نمو نظري يسبق النمو الحركى الواقعي ولا يتمثل من خلاله هو خطأ وخطر كذلك.
إن هذا الدين جاء ليبني عقيدة وهو يبنى أُمة ثم لينشىء منهج تفكير خاصاً به، ولا انفصال بين الثلاثة فكلهم حزمة واحدة.

محاولة جعل الإسلام نظرية خطير من ناحيتين:

1. **عقيدياً**: فكأننا نريد أن نرتقي بالإسلام ومنهجه ليوازي مناهج العبيد.
2. **إن تناول هذا الدين بمنهج غريب عن طبيعته يبطل وظيفة هذا الدين أصلا.**

إن تقديم التصور والنظام الإسلامي في صورة تعبيرية لن يفيد إلا المشتغلين بحركة إسلامية واقعية وبالقدر الذي وصلوا إليه في الحركة.

إن الجاهلية تضغط وتحرج المخلصين فتسأل عن تفصيلات النظام الإسلامي وحل المشكلات، وكأن هذه هي المشكلة، وكأنهم مستسلمون لشرع الله وحكمه ابتداءً، ولا ينقصهم إلا الحلول.

إن على أصحاب الدعوة أن يرفضوا إملاء منهج غريب عن دينهم، بل عليهم أن يكشفوا محاولة الإحراج ومناورته ويستعلوا عليه، ثم يتحركوا وفق منهج هذا الدين، فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية.

[3] نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

موكب الرسل على مدار التاريخ كانت مهمته اعادة الناس إلى معرفة الله وعبادته والاستسلام له، ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هى الحلقة الأخيرة فى هذه السلسلة.
كان الناس يعرفون ويقرون بوجود إله، إنما يشركون به في العبادة والاعتقاد، أو الاتباع والحاكمية، وقد جاء الإسلام لرد الناس إلى الإسلام لله رب العالمين في كل أمور حياتهم، فينسجم الجانب الفطري في الإنسان مع الجانب الإرادي ثم كلاهما مع الوجود الكوني.

لم تكن الجاهلية في صورة نظرية قط وإنما كانت دائما في صورة تجمع حركي عضوي، ولذلك فإن محاولة رد الناس إلى الله وإلغاء وهدم نظام الجاهلية لا بد أن يكون في صورة تجمع حركي عضوي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية وفي علاقاته وروابطه من المجتمع الجاهلي القائم.
القاعدة النظرية للإسلام هي الشهادتان: إفراد الله بالالوهية والربوبية والحاكمية في كل شئون الحياة، ومعرفة حكم الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه القاعدة النظرية تمثل منهجا كاملا للحياة عند تطبيقها.

إن المسلمين (نظرياً) الداخلين فى التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى سيتحركون، بوعى أو بغير وعى، لبنائه وتدعيمه والدفاع عنه وقضاء حاجاته الأساسية، بدلاً من أن تكون حركتهم فى اتجاه هدم نظام هذا المجتمع الجاهلى القائم وبنائه على الإسلام، لذلك لم يكن بد من أن تتمثل القاعدة

النظرية للإسلام من أول يوم في صورة **تجمع حركي عضوي يخلع ولاءه من التجمع الجاهلي وقيادته، ويجعلها للتجمع الإسلامي وقيادته والذي يستهدف هدم نظام البناء الجاهلي**. هكذا وجد الإسلام وهكذا فقط يمكن أن يوجد مرة أخرى في أي زمان ومكان.

الإسلام وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة، وفق هذا المنهج، كان يستهدف إبراز انسانية الإنسان وتقويتها وتمكينها وإعلاءها على الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني، لهذا **أقام المجتمع الإسلامي على آصرة العقيدة فقط، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة.**
إن أصحاب الجهالة العلمية ظنوا أن الإنسان حيوان لمجرد وجود بعض الصفات المشتركة ثم اضطروا للتراجع.

كانت نتيجة بناء المجتمع الإسلامى على آصرة العقيدة هى مجتمع عضوي فائق فى فترة قصيرة نسبيا، يتكون من مختلف العناصر والأجناس والأقوام التى انصهرت وتمازجت وارتبطت بآصرة العقيدة، والحب فى الله، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة، خلاصة كفاياتها وتجاربها الشخصية والقومية والتاريخية فبرزت إنسانيتها وحدها بلا عائق وهذا ما لم يحدث في التاريخ. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يومًا ما (عربية)، إنما كانت دائمًا (إسلامية)، ولم تكن يومًا (قومية)، إنما كانت دائمًا (عقيدية).

اشهر تجمع في التاريخ هو **الإمبراطورية الرومانية** التي كانت تجمعا طبقيا وتقوم على أساس سيادة الجنس الروماني، **ثم البريطانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية** وكلهم في ذلك المستوى الهابط، ثم أقامت **الشيوعية** تجمعا تخطى حواجز الجنس واللون، ولكن قام على الطبقية والحقد الأسود الذي هو أسوأ ما في الكائن الإنساني (أي قام على إبراز الصفات الحيوانية وحدها باعتبارها المطالب الأساسية وهي الطعام والمسكن والجنس).
"قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ....".

[4] الجهاد في سبيل الله

تلخيص جيد **لابن القيم في زاد المعاد** لمراحل الجهاد، والصورة النهائية التي ذكرها هي: (**قتل الناقض لعهده، تأجيل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، الإتمام بالعهد إلى مدته للموفي به، وفرض الجزية على أهل الذمة.**
صار أهل الأرض إلى: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب، والمنافقين (تقبل علانيتهم ويغلظ عليهم ...).

<u>سمات المنهج الحركي لهذا الدين:</u>

1. **الواقعية الجدية** : فهو حركة تواجه واقعا بشريا (اعتقاد، تصور، انظمة، قوة) بالوسائل المكافئة له.
2. **الواقعية الحركية** : فهو حركة ذات مراحل، وكل مرحلة لها وسائلها وحاجاتها، وكل مرحلة تسلم إلى التي تليها، وجاءت النصوص مرحلية حتى انتهت إلى الوضع النهائي.
3. **القاعدة الثابتة والهدف النهائي الواحد**: تحقيق العبودية لله في الأرض، **والحركة والوسائل المتجددة** لا تخرجه عن قواعده الثابتة ومراحل تحقيقها.
4. **الضبط التشريعي للعلاقات** بين المجتمع المسلم والمجتمعات الأخرى.

خلط الكثيرون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس، وهذان أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.
إن هذا الدين إعلان عام لتحرير نوع الانسان في الأرض كلها من العبودية للهوى، وإعلان العبودية الكاملة لله، والتي من أخص خصائصها الحاكمية والتشريع. <u>إن الدولة الإسلامية فى الأرض تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة.</u>

سيادة التشريع الإلهي وحده وإلغاء قوانين البشر لا يتم بمجرد التبليغ والبيان لأنهما يواجهان العقائد والتصورات، أما العقبات المادية الأخرى (الأنظمة

السياسية، القوة،..) فتواجهها الحركة، وهما معاً (البيان والحركة) يواجهان الواقع البشري بجملته بوسائل مكافئة لمكوناته.

ليس هذا الدين إعلاناً لتحرير العرب إنما هو لبني الإنسان ومجاله هو الأرض كلها، **إن هذا الدين يريد أن يرد العالمين من عبودية البشر للبشر** (بالاتباع في التشريع والحاكمية خاصة) **إلى عبودية البشر لله سبحانه وتعالى** (راجع حديث عدي ومعنى عبادة الأحبار والرهبان: الاتباع في التشريع من دون الله).
ليس قصد الإسلام إكراه الناس على العقيدة وإنما إزالة الأنظمة القائمة على غير عبودية الله وحده، ثم إطلاق الأفراد احراراً بالفعل في اختيار عقيدتهم، على أن يحكم البشر في الأرض نظام قاعدته العبودية لله وحده.

إن مدلول الدين (المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة) أشمل من مدلول العقيدة.
إدراك ما سبق يبين **حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف إلى جانب الجهاد بالبيان.**
إن تفسير **(الجهاد الدفاعي) هو تفسير المنهزمين نفسياً وروحياً،** وغير المدركين لطبيعة ومنهج وأهداف هذا الدين، إلا إذا غيرنا وتوسعنا في مفهوم كلمة (الدفاع) لتصبح دفاعاً عن الإنسان في الأرض كلها وتحريره.

إن الجهاد ضرورة للدعوة إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل الجوانب، **والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها** الحركة الجهادية في الإسلام بأمر من الله. **لا بأوائل أو أواسط أيام الدعوة،** وهذه **المراحل هي التحريم، الإذن، الأمر لمن بدأهم بقتال، الأمر المطلق لجميع المشركين (مع أخذ الجزية من أهل الكتاب).**

إن جدية نصوص القرآن والسنة في الجهاد، وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام وطوال تاريخه، ترد التفسير المنهزم للجهاد.
<u>الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض، متى قام الإسلام بإعلانه العام رماه الطغاه والجبابرة ولم يسالموه قط، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم حتى يكون الدين كله لله.</u>

<u>الكف عن القتال</u> لم يكن إلا مرحلة في خطة طويلة وهو مفهوم الأسباب:

1. كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ.
2. لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد (الصبر، التجرد من الذات، ضبط الأعصاب،...).
3. لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف.
4. لاجتناب إنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت في هذه المرحلة.
5. لعلم الله سبحانه وتعالى أن كثيرين من المعاندين سيكونون من جند الإسلام بل من قادته (مثل عمر).
6. لأن النخوة العربية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يتحمل الأذى ولا يتراجع.
7. لقلة عدد المسلمين وانحسارهم في مكة.

<u>المعاهدات في المدينة</u> مع اليهود وبقية مشركي العرب بها تقتضيها طبيعة المرحلة :

1-لأن هناك مجالا للتبليغ والبيان لا تقف له سلطة ونظام يمنعه، بل أصبحت السلطة في يد القيادة المسلمة ممثلة في شخص النبي صلى الله علية وسلم.

2- أراد الرسول التفرغ لقريش التى تقف حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى المنتظرة، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم السرايا ثم كانت غزوة بدر الكبرى.

من النصوص التى حملت وبينت مبررات الجهاد: النساء(74-76) والأنفال (38-40) التوبة (29-32). كانت مبررات الجهاد واضحة وماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحدهم عما أخرجه للجهاد أو قال خرجنا ندافع عن الوطن أو ننال الغنيمة (راجع قول ربعي بن عامر، حذيفة بن محصن، المغيرة بن شعبة لرستم قائد الفرس في القادسية).

(أن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان، مع هواه وشهواته، مع مطامعه ورغباته، مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه، مع كل شارة غير شارة الإسلام، ومع كل دافع إلا العبودية لله وحده وتحقيق سلطانه في الأرض).

إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله أن تحاول سحقه دفاعاً عن وجودها، ولا بد أن يدافع المجتمع المسلم عن نفسه، هذه ملابسة تولد مع ميلاد الإسلام ذاته، وهي معركة مفروضة عليه، ولكن الحقيقة الأكبر والأشد أصالة أن **من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام إبتداءاً لإنقاذ الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله** (ولو سكتت بعض المعسكرات المعادية له في فترات عنه، إلا أن تعلن إستسلامها لسلطانه في صورة الجزية)، **والمسافة قد لا تبدوا كبيرة في بداية الطريق بين الدفاع المفروض والحركة الذاتية**، إذ المعركة قائمة على أي حال، **ولكن المسافة في نهاية الطريق تبدوا هائلة شاسعة.**

وحيثما وجد التجمع الإسلامي الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسأله العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، **فهذا مسألة خطة لا مسألة منهج، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة** في المراحل التاريخية المتجددة، ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.

[5] لا إله إلا الله منهج حياة

العبودية لله وحده شطر الركن الأول والتلقي عن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني. **والقلب المؤمن هو الذي يتمثل فيه شطري العبودية والتلقي، والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها.**
الشهادتان قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة.
السمة الأولى التي تميز المجتمع المسلم أنه يقوم على **العبودية التي تتمثل في التصور الاعتقادي، الشعائر التعبدية، الشرائع القانونية، (والعادات والأعراف والتقاليد).**

<u>التصور الاعتقادي</u>: هو الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني، ويتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه، وحقيقة

الكون وحقيقة الحياة وحقيقة نفسه (وحقيقة العلاقات مع الآخرين)، ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعا، وبالتالي فهو يشمل الحياة كلها.

المجتمع المسلم: لا يقوم حتى تنشأ جماعة من البشر تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده في الاعتقاد والعبادات والشرائع، ثم تنظم حياتها كلها على أساس هذه العبودية فيولد المجتمع المسلم.
جرت السنة أن يشن المجتمع الجاهلى حربا لا هواده فيها على المجتمع المسلم (سواء على طلائع المجتمع أو بعد قيامه فعلا).

ولا يتقرر وجود المجتمع المسلم إلا إذا بلغ من القوة (قوة الاعتقاد والتصور، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الجماعي، وسائر أنواع القوة اللازمة للتغلب أو على الأقل الصمود أمام الجاهلية) ما يمكنه من مواجهة ضغط المجتمع الجاهلي.
المجتمع الجاهلى: هو كل مجتمع لا يخلص العبودية لله متمثلة في التصور الاعتقادي والشعائر التعبدية والشرائع القانونية.
ويدخل في المجتمعات الجاهلية المجتمعات الشيوعية والوثنية واليهودية والنصرانية، ثم أخيرا المجتمعات المسلمة غير المطبقة لأحكام الإسلام وشريعة الله لمخالفتها العبودية في نظام حياتها، **والإسلام يرفض الاعتراف بشرعية هذه المجتمعات.**

الإسلام جعل الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة (أأنتم أعلم أم الله)، ودين الله ليس غامضا ولا مائعا (النص ثم الاجتهاد وفقه الأصول).

"الدين للواقع" نعم ولكن أي واقع، إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه، وليس واقع الجاهلية ليقرها ويبحث لها عن سند.
إن بدا للبشر يوما أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله فهم:
1. واهمون.
2. كافرون.

[6] شريعة كونية

أن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، جعل الله له قوانينه التي يسير بها ولا يتمرد عليها أو يخالفها.
الإنسان من هذا الكون سن الله له شريعة لتنظيم حياته الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية الكونية، فالشريعة كونية متصلة بناموس الكون ومتناسقة معه.
عدم إدراك البشر لجميع السنن الكونية والناموس العام، ولا حتى بأصل فطرتهم، يجعلهم لا يملكون أن يشرعوا لأنفسهم نظاما يحقق التناسق المطلق، **ويصبح العمل بالشريعة واجب لتحقيق ذلك التناسق فوق وجوبه اعتقادا**.

تحقيق التناسق المطلق فيه الخير كله (سلام مع الكون، سلام مع النفس)، أيضا التعرف على أسرار الكون واستخدامها في خير البشرية.

يقع الشقاق أولا بين الانسان وفطرته (تحت تأثير هواه) عندما لا يستسلم لله، ثم يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال، ثم بين البشر والكون من حولهم (يتحول إلى رسائل تدمير وشقاء).

هدف قيام الشريعة ليس مجرد العمل للآخرة، فالدنيا والآخرة مرحلتان متكاملتان.

[7] الإسلام هو الحضارة

الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات، مجتمع إسلامي، ومجتمع جاهلي : "المجتمع الإسلامي" هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاماً، وخلقًا وسلوكًا، و"المجتمع الجاهلي" هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه.

و"المجتمع الجاهلي" قد يتمثل في صور شتى كلها جاهلية : قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى، وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله

تعالى، ولكن يجعل له ملكوت السماوات، ويعزله عن ملكوت الأرض، فلا يطبق شريعته في نظام الحياة.

"المجتمع الإسلامي" بصفته تلك هو وحده المجتمع المتحضر، و"المجتمعات الجاهلية" بكل صورها المتعددة مجتمعات متخلفة، ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة، بتقديم تعريف الحضارة.

ا- المجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل، الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته في الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى، هذا فقط هو المجتمع المتحضر، وخلافه هو المجتمع المتخلف أو الجاهلي.

ب- وحين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادراً من إله واحد، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر، **وحين يتجمع الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي، يكون هو المجتمع المتحضر،** اما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية مثل الجنس واللون والقوم والأرض فهو المجتمع المتخلف أو بالمصطلح الإسلامي هو "المجتمع الجاهلي".

ج- وحين تكون "إنسانية" الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص "الإنسانية" فيه هي موضع التكريم والاعتبار، **يكون هذا المجتمع متحضراً،** فأما حين تكون "المادة" (في أية صورة) هي القيمة العليا، سواء في صورة "النظرية" كما في التفسير الماركسي للتاريخ، أو في صور "الإنتاج المادي" كما في أمريكا وأوروبا وغيرها، فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعاً جاهلياً.
إن المجتمع الإسلامي لا يحتقر المادة، لا في صورة النظرية، ولا في صور "الإنتاج المادي"، فالإنتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله،

ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص "الإنسان" ومقوماته.

د- وحين تكون "الأسرة" هي قاعدة المجتمع، وتقوم هذه الأسرة على أساس "التخصص" بين الزوجين في العمل، وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة، يكون هذا المجتمع متحضراً، ذلك أن الأسرة على هذا النحو، في ظل المنهج الإسلامي، تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمِّى فيها القيم والأخلاق "الإنسانية" التي أشرنا إليها، ممثلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة، فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها)، والنسل (غير الشرعي)، هي قاعدة المجتمع، وحين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة، وحين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة، عندئذ يكون هنا هو "التخلف الحضاري" بالقياس الإنساني، أو تكون هي "الجاهلية" بالمصطلح الإسلامي.
وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع متخلف أم متحضر، جاهلي أم إسلامي، من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان، ويكون **"الإسلام هو الحضارة".**

ل- وأخيراً فإنه حين يقوم "الإنسان" بالخلافة عن "الله" في أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله، ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده، ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها، وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله في هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، **يومئذ يكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة، فأما الإبداع المادي فقد يكون وتكون معه الجاهلية.**

وبعد، فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي، وطبيعة تكوينه العضوي، تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام

المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي، المجتمع الإسلامي وليد الحركة (آتية من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري)، **والحركة فيه مستمرة** (إن الإنسان لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه، إنه سينطلق بها، فهذه طبيعتها، طبيعة الحركة الحية)، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم.

هذه النشأة، وهذا التكوين، خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تُميزانه، تُميزان وجوده وتركيبه، وتُميزان طابعه وشكله، وتُميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة.

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولا تسود فيه قيمها الأساسية، والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفاً، والألف يصبحون إثني عشر ألفاً.. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي.

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته، وبين المجتمع الجاهلي، الذي أخذ منه أفراده، وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع، وأعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع حسب الميزان والاعتبار الإسلامي.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده، والتجمع على آصرة العقيدة فيه، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم الإنسانية التى تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته، وحرمة الأسرة، والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة).

إن "أشكال" الحضارة الإسلامية التى تقوم على هذه الأسس الثابتة، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي، لأنها تستخدم الموجود منها

فعلاً في كل بيئة، ومن ثمَّ لا بد أن تختلف أشكالها، ولكن المرونة ليست هي التميع، والفرق بينهما بعيد جداً.

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة (بطريقة الإسلام ومنهجه) على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي، وإنْ كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم (عند وجوده) وتدفعه إلى الأمام دفعاً، وترفع أهدافه، كما إنها تنشئه إنشاءً حين لا يكون، وتكفل نموه واطراده، ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة، ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص، وتركيبه العضوي، الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى، التي يتميز بها عن كل مجتمعات الجاهلية.

[8] التصور الإسلامي والثقافة

إن "شريعة الله" تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضاً، يتمثل في المعرفة بكل جوانبها، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة.

ا- **المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة،** كالكيمياء، والطبيعة، والأحياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، وطرق الإدارة (من الناحية الفنية الإدارية البحتة)، وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال (من الجانب الفني)، إلى آخر ما يشبه هذا النشاط، يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم، لأنها من الأمور الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، **وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان، وغاية وجوده، وحقيقة وظيفته، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله، ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والأنظمة والأوضاع والأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تنظم حياته أفراداً وجماعات.**

ب- وأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً أو مجتمعات، وهو التعلق بالنظرة إلى "نفس" الإنسان وإلى "حركة تاريخه"، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون، ونشأة الحياة، ونشأة هذا الإنسان ذاته (من ناحية ما وراء

الطبيعة) فالشأن فيه، شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التي تنظم حياته ونشاطه، مرتبط بالعقيدة ارتباطاً مباشراً، **فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم، يثق في دينه وتقواه، ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله، والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده.**

ج- **إن اتجاهات الفلسفة بجملتها، واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها، واتجاهات علم النفس بجملتها** (عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها)، ومباحث الأخلاق بجملتها، واتجاهات دراسة الأديان المقارنة بجملتها، واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها (فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة)، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها، إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها (إن لم يكن كلها) يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص.

د- إن حكاية أن الثقافة تراث إنساني لا وطن له ولا جنس ولا دين، هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية، دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية "الميتافيزيقية" لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً.
يعتبر الإسلام أن هناك (فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية) نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، قاعدة إقامة الفكر البشري إلهاً.

ك- إن حكاية فصل العلم عن صاحب العلم لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنساني، والأوضاع، والقيم، والأخلاق، والعادات، وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحي.

ل- حين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله سبحانه (البقرة 109، 120، آل عمران 100، وفي الحديث (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء))، **يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة في أي مبحث من المباحث.**

م- العلم الذي تشير إليه الآيات القرآنية هو العلم الذي يهدي إلى الله وتقواه، لا العلم الذي يفسد الفطر فتلحد في الله، **وهو ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع،** فالعلم يشتمل على كل شيء، ويتعلق بالقوانين الطبيعية، وتسخيرها في خلافة الأرض (من فرائض الكفاية)، تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع، **ومن ثَمَّ يكون أيضا من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي، وعلى نتاجه كذلك، في الدراسات الإسلامية.**

[9] جنسية المسلم عقيدته

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه فيتلقى منه موازينه وقيمه.
وقرر الإسلام أن هناك وشيجة واحدة (لا تجد قوما ..)، حزبا واحدا وطريقا واحدا (وإن هذا صراطي ..) ونظاما واحدا (أفحكم الجاهلية ..) وشريعة واحدة (ثم جعلناك على شريعة ..) وحقا واحدا (فماذا بعد الحق ..) ودارا واحدا تهيمن عليها شريعة الله ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضا (الأنفال 72-75).
فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضوا في الأمة المسلمة في دار الإسلام، ولا قرابة للمسلم إلا التي تنبثق من العقيدة في الله – ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة مالم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة (موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي من والده عند معرفته بـ "ليخرجن الأعز منها الأذل..").
وهذه الولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة فتربط أول الأمة بآخرها برباط المودة والولاء (الحشر 10،9).

وتتعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط : وشيجة الأبوة في قصة نوح (هود 45-47)، ووشيجة البنوة والوطن في قصة إبراهيم (البقرة 124-126) (مريم 48) (الممتحنة 4)، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعا في قصة أصحاب الكهف (الكهف 13-16)، ورابطة الزوجية في قصة امرأتي نوح ولوط وامرأة فرعون (التحريم 11،10).
وتمضي الأمة المسلمة الوسط في نفس الطريق (لا تجد قوماً) (المجادلة22) (دعوها فإنها منتنة)، (ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية).

فأصبح المسلم لا وطن له إلا دار الإسلام التي تحكم بشريعة الله، الدار التي يأوى إليها ويدافع عنها ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها (وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم مكة التي بها أهله وعشيرته).
هذا هو الإسلام (فلا وربك ...) (النساء 65) لا باللسان أو الميلاد.
إن انتصار المسلم هو نصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا).

وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته، وتصده عن دينه، وتعطل شريعة الله، هي دار حرب، ولو كان فيها الأهل والعشيرة والمال.

← **الوطن : دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله.**

← **الجنسية : عقيدة ومنهاج حياة.**

وقد رد الله ادعاء اليهود أنهم شعب الله المختار (البقرة 135-138) إنما الأمة المسلمة بمعناها الصحيح هي شعب الله المختار (كنتم خير أمه).

هذا التصور الرفيع للدار والجنسية والقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله، بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية، وصور الشرك الخفية المبينة في آية التوبة (قل إن كان آباؤكم ...).

[10] نقلة بعيدة

هناك حقيقة أولية هي أن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة كلها، ووظيفة الإسلام أن ينشيء حياة إنسانية توافق هذا التصور أو تمثله في صورة واقعية، وأن يقيم في الأرض نظاماً يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله.

الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور، فإما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وإما شريعة الله وإما الهوى (المائدة 49، الشورى 15، القصص 50، الجاثية 18-19، المائدة 50). **ووظيفة الإسلام هي إقصاء الجاهلية وتولي قيادة البشرية على منهجه الخاص،** فالإسلام لم يجيء ليربت على شهوات الناس، إنما جاء ليلغي هذا كله إلغاءاً، ويبدل حياة الناس وتصوراتهم تبديلا، ولن يسلبهم من المعرفة العلمية البحتة شيئا بل سيدفعها للأمام ولمصلحة البشرية، وحين ندرك ذلك سنقدم الإسلام في ثقة وقوة، وفي عطف ورحمة، ولن نتدسس إلى الناس بالإسلام ولن نربت على شهواتهم و انحرافهم.

ولم تكن الدعوة في أول عهدها في وضع أقوى ولا أفضل منها الآن، كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية، وكانت محصورة في شعاب مكة، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها، وكانت تحف بها امبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها، ولكنها مع هذا كله كانت قوية، كما هي اليوم قوية، وكما هي غداً قوية، عناصر القوة الحقيقية كامنة في طبيعة هذه العقيدة ذاتها.

قد يكره الناس ذلك أول الأمر كما حدث أول مرة، ولكنهم سيفيئون إلى الحق أيضا كما حدث أول مرة، **فإن النفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة إلى حياة بمبررات قوية، وذلك قد يكون أيسر عليها من تعديل جزئي لا يكون له مبررات قوية حقيقية.**
إن الإسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية وتصرفاتها، ولا عبرة بأن حال أهلها خير من أهل الوطن الإسلامي، لأن هؤلاء تركوا إسلامهم فصاروا إلى الضياع، والدعوة اليوم تقوم لترد الجاهلين إلى الإسلام (سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك)، وتجعلهم مسلمين من جديد.

نحن لا ندعوا الناس إلى الإسلام لننال أجراً أو مصلحة، ولا نريد علوّاً في الأرض ولا فساداً، ولذا فيجب أن يعلموا منا حقيقة الإسلام كلها : يجب ألاّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية، بشتى أسمائها وراياتها جميعاً، وإنما هو الإسلام فقط، **الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة.**

ليس في إسلامنا ما نخجل منه أو نحاول الدفاع عنه أو نتدسس به إلى الناس (طرح الكاتب بعض واقع الجاهلية الغربية الحقيقي كما رآه في أمريكا).
إن وظيفتنا الأولى هي إحلال التصورات والتقاليد الإسلامية دون أن نجاري الجاهلية في شيء، إن ضغط الواقع الجاهلي شديد وبخاصة في عالم المرأة، وليس لنا إلا أن نثبت ثم نستعلي بالحق.

<u>كذلك يجب ألا ننعزل عن الجاهلية ونقاطعها الآن</u>، إنما المخالطة مع التميز، الأخذ والعطاء مع الترفع، الصدع بالحق في مودة، الاستعلاء بالإيمان في تواضع.

<u>إنها نقلة بعيدة من الجاهلية إلى الإسلام</u>، وهوة واسعة لا يقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق، ولكن لينتقل عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام، ولا أنصاف حلول وإلا (لكم دينكم ولي دين).

[11] استعلاء الإيمان

نداء (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء وكل وضع وكل قيمة وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان (والجهاد حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي).
الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة، ولا نخوة دافعة، ولا حماسة فائرة، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود، الحق الباقي وراء منطق القوة، وتصور البيئة، واصطلاح المجتمع، وتعارف الناس، لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت.

المؤمن هو الأعلى:

1. **سنداً ومصدراً.**
2. **إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود.**
3. **تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأشخاص والأشياء والأحداث.**
4. **ضميرا وشعورا وخلقا وسلوكا.**
5. **شريعةً ونظاماً.**

هكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المواقف الجوفاء (المغيرة بن شعبة مع رستم، ربعي بن عامر مع رستم)، وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، **وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وإن للإيمان كرة لا مفر منها، وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً (آل عمران 196-198).**

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس، إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه.
<u>إن الجاهلية ليست فترة من الزمان، إنما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن الإسلام.</u>
حين تتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوى المادية لا يفارقه شعوره بأنه الأعلى.
حين تسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغايرة لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه، ويقف قابضاً على دينه كالقابض على جمر، والمجتمع يسخر منه، لا يفارقه شعوره بأنه الأعلى وهو يرى نهاية الموكب (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا ...).

إنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة عاطلة من عوامل الإغراء، إنما هو الجهد والمشقة والجهاد والشهادة، ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين بنفسه أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس ودنياهم.

[12] هذا هو الطريق

سورة البروج تخط خطوطا تبين حقيقة الدعوة إلى الله، فتبين صورة للقلوب التي تحررت من العبودية للحياة وذلة حب البقاء، وارتفعت على الفتنة وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، وصورة للقلوب والجبلات الشريرة المجرمة اللئيمة والتي تتلهى وتنتشي برؤية العذاب والقتل والنار الحارقة.

إن القرآن يعلم المؤمنين أن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وأن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، والعقيدة على الألم، والإيمان على الفتنة.

إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها، وليس هو الحياة الدنيا وحدها، بل هذا هو الشطر الصغير والزهيد منها، فبعد ذلك هناك الآخرة، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض ولا ينفصل عنه، فالمعركة إذن لم تنتهِ وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد.
وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال، بل إن الملأ الأعلى يشارك في الأحداث ويشهدها ويشهد عليها، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها.

وعد الله المؤمنين جزاء على الإيمان، والطاعة، والصبر على الابتلاء، والانتصار على الفتن : طمأنينة القلب، والرضوان والود من الرحمن، والذكر في الملأ الأعلى، واشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض، والحياة عند الله للشهداء، وأخذ الظالمين والطغاة والمكذبين في الآخرة، والإملاء لبعضهم في الأرض وأخذ البعض الآخر (أدلة وآيات وأحاديث هامة).

شهد تاريخ الدعوة إلى الله نهايات مختلفة ومتنوعة:

1. مصارع قوم نوح، هود، شعيب، لوط ونجاة الفئة المؤمنة القليلة بدون دور بعد ذلك.
2. مصرع فرعون وجنوده ونجاة موسى وقومه والتمكين المحدود له.
3. مصرع المشركين وانتصار محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإقامة منهج الله كاملاً مهيمناعلى الحياة للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية.
4. نماذج أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني تتراوح بين هذه النهايات.
5. نموذج لا ينجو فيه المؤمنون ولا يؤخذ فيه الكافرون، ليستقر في حس المؤمنين أصحاب الدعوة إلى الله أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه وليس لهم من الأمر شيء.

(إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية ...).
(إنهم أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم أو عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الدعوة لا شأن الأجير...).

هم يقبضون :
1. طمأنينة في القلب ورفعة في الشعور وجمالاً في التصور ... .
2. ثناء في الملأ الأعلى وذكراً وكرامة.
3. حساباً يسيراً ونعيماً كبيراً في الآخرة.
4. رضوان من الله أكبر.

هكذا كانت التربية القرآنية (صبراً آل ياسر، خباب، ألا تدعوا لنا...).
(لقد كان القرآن ينشيء قلوبا يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع، وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء، إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، قلوب مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت، بلا جزاء في هذه الأرض

قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين).

(حتى إذا وجدت هذه القلوب ... وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض وائتمنها عليه، لا لنفسها ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي).

(فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي ... إلى نصر أو غلبة ... ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئا من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله ... لا جزاء على الآلام والتضحيات ... لا فالأرض ليست دار جزاء (إنما بشريات، وسكينة، وتمكين)، وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء).

<u>إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق، إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة، إنها ليست معركة سياسية، ولا معركة اقتصادية، ولا معركة عنصرية</u> ...

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة كي يموّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة، فمن واجب المؤمنين ألا ينخدعوا، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت، ونحن نشهد محاولة زعم أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار والعكس هو الصحيح، والاستعمار الحديث ستار للحرب الصليبية (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد).

المنطلـــــــــق

المقدمة :

- معاذ بن جبل (اجلس بنا نؤمن ساعة)، وأكمل عبد الله بن رواحة (... إن القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا).
- سلسلة إحياء فقه الدعوة تخاطب الدعاة دون الغافلين أو المنحرفين، تدعوهم إلى التجرد، والتقلل من الدنيا، والابتعاد عن الفتن، والصبر في المحن، وإجادة فن قيادة الأمة، من خلال عمل جماعي حركي يقيم الدين ويعيد الخلافة.
- شرح الكاتب وبيّن منهجيته في الاستدلال والاقتباس، واقتصاره على الصحيح الموثق.
- هذا الكتاب يبين ضرورة الانخلاع عن السلبية، ووجوب إنكار المنكر في عمل جماعي.
- أصلح نفسك .. يصلح الذين معك، فالحسن عندهم ما تستحسن، والقبيح عندهم ما تترك.
- على قدر الزيادة في العلم والفكر، يجب أن تكون الزيادة في العمل والبذل.

1- نرفض الأهواء

ميمون بن مهران : (**إياكم وكل هوى يسمى بغير الإسلام**)، كل ما هو غير الإسلام هوى.
وحي أو الأهواء : **الوحي هو الإسلام كله والشريعة كاملة**، وكل ما عداه، وهو كثير، هوى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم)، ابن عباس: ما ذكر الهوى في القرآن إلا ذمّه الله.

لا يوجد طريق وسط بين الوحي والهوى، أو تقارب، أو تفاوض، أو توافق، أو تنازل ..... (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) **إن ترك الشريعة أو بعضها هو تحكيم لهوى من الأهواء، وصد عن سبيل الله، وبدعة مغلظة.**
أحمد بن حنبل : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة)، جعل يكررها ويقول وما الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلكه.

إنكار بعض الشريعة كفر : القول بعدم الإيمان أو عدم القناعة بصلاح حكم شرعي للعمل به، وقد ثبت بآية أو حديث، هو إيمان ببعض الكتاب وكفر ببعض، ولا خلاف بين المسلمين في تكفيره (... ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ...)، (... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ...)، (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ...)، **فالإيمان الجزئي يكفر صاحبه.**

الطاغوت هو كل ما خالف الكتاب والسنة، ويشمل من يطلب حلا وسطا أو دينا مخلطا مرقعا، يريد أن يتخذ بين ذلك سبيلا.

هناك فارق بين كفر الأفكار أو الأنظمة أو الحكومات (كفر عام أو معنوي)، وبين تكفير الأفراد المشاركين فيها (كفر على التعيين)، فالأخير يحتاج إلى بينة قاطعة وحجة على الفرد واستتابة قبل تكفيره.

لا نكفر مسلما بغير برهان : ومن الزيغ ما هو دون ذلك وأصغر، قال غير واحد من السلف في نصوص مثل (من حلف بغير الله فقد أشرك)، (ترك الصلاة كفر) : كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك.
درجات متعددة تمتد من اللمم إلى الكبائر، والدليل في حديث البخاري (إنك امرؤ فيك جاهلية)، فالمعصية شعبة من الجاهلية لا تنقل صاحبها إليها بالكلية.
خطورة الخطأ في تكفير من يظهر الإسلام من حديث (أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه) مسلم، لذلك شدد البنا على ذلك في الأصل العشرين لخطورته (... إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذّب صريح القرآن ...).

حساسية النفس المؤمنة : الحذر في التكفير لا يمنع من رؤية الانحراف البالغ السعة الذي فيه معظم المسلمين. **لقد استهلكت الفتوح والإدارة تدريجيا تلك الصفوة من الصحابة المندفعة لنشر الدين وتحطيم الطواغيت وفتح البلاد، وقيادة الناس إلى الجنة،** ثم سرى نوع بطر إلى أجيال جديدة، فلانت نفوس، وضعفت عزائم، كان أولى لها أن تواصل تحطيم الطواغيت.
قال عمر بن عبد العزيز : (إني أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، **حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره**)، وهي حساسية النفس المؤمنة لصغار المعاصي وأوليات الترف وهين الظلم وقليل البدع.

<u>جيلنا المخدوع</u> : **إن عصاة المسلمين اليوم ضحية تربية أخلدتهم إلى الأرض، أرادت لهم الفسوق ابتداء، لتستخف بهم الطواغيت انتهاء،** (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين)، وهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، جيل لا يفيق، بعد انشغاله باللقمة ثم الفجور، ليستمع إلى هدى، أو يفيء إلى دين.
إنها سياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة، فأشرب الناس الذل.
كل ذل يصيب الإنسان من غيره وينالە من ظاهره، قريب شفاؤه ويسير إزالته، فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب، فهو الداء الدويّ والموت الخفيّ.

<u>الظبي الجفول</u> : من تمام هذا الترويض التضييق على دعاة الإسلام ليستبد بالتوجيه الأدعياء والمخادعين والمتلاعبين، **وعنوان الخطة : تعليم ليث الإسلام جفلة الظبي،** ومحو قصص أسد الإسلام من المجاهدين والعلماء والزهاد، فينتجون ظبيا لا يقتحم، **يستبدل العزم بالتلفت، ويتعلم المسارعة إلى الهرب، فأصبح حرا استرقوه ففرح.**

<u>ضرورة الانتشال السريع</u> : وجوب السعي لانتشال الأمة من تيهها، ووجوب التقدم للأخذ بقيادها وإن أبت، مع ما في ذلك من التعب والنصب، ومادتنا هي الشباب الأحرار الذين يتغنون بالقرآن في عصر المادة والشهوات.

إن الطغيان كلما طال أمده تأصلت في نفوس المتميعين معاني الاستخذاء، وانغرس فيها طباع العبيد : استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرد حين يرفع عنها السوط، وبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.

<u>الانطلاقة المزدوجة</u> : لكل ما سبق، **وجب وجود حركة إسلامية،** آمرة بالمعروف، وناهية عن المنكر والانحراف، وكابتة له، محاولة إقامة حكم للإسلام ودولة.
ننظر إلى الحكومة الداعية إلى نهج يخالف الشرع، أو حزب يدعو إلى ذلك، أو فرد متفلسف معتقد لحل بعض الحرام، أو منكر لجزء من الإيمان، **نظرة تكفير غاضبة،** ونسلك مسلكا غليظا مع هؤلاء.
وفي نفس الوقت ننطلق **منطلقا آخر تجاه أهل المعاصي،** ونخاطبهم أنواعا متعددة من الخطاب تناسب حال كل منهم، كل ذلك في آن واحد، وفي مجتمع واحد.

أهم المفاهيم في المقدمة والفصل:

1. أهمية التذكير والتربية للمسلمين عموما وللدعاة خاصة.
2. أساسيات : التجرد، التقلل من الدنيا، الابتعاد عن الفتن، الصبر في المحن، إجادة فن قيادة الأمة، العمل الجماعي الحركي المنظم.
3. أصلح نفسك يصلح الذين معك.
4. على قدر الزيادة في العلم والفكر يجب أن تكون الزيادة في العمل والبذل.
5. وحي أو الأهواء، ولا طريق وسط بينهما.
6. إنكار بعض الشريعة كفر، والطاغوت كل ما أو من خالف الكتاب والسنة.
7. لا نكفر مسلما بغير برهان، وقد شدد البنا على ذلك، خطورة فكر الخوارج.
8. الحذر من التكفير لا يمنع رؤية الانحراف البالغ السعة الذي نعيشه واقعيا.
9. ترك الجهاد والبذل والدعوة يؤدي إلى الركون والضعف ثم الانحراف.

10. تربية مجتمعاتنا أرادت للناس الفسوق ابتداء، لتستخف بهم الطواغيت انتهاء.
11. التضييق على دعاة الإسلام جزء من الخطة ليستبد بالتوجيه المنحرفون.
12. وجوب التقدم للأخذ بقياد الأمة وإن أبت، ومدادنا الشباب القرآني الصالح.
13. يجب وجود حركة إسلامية آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ومقيمة للدولة.
14. نظرتان: نظرة تكفير غاضبة للمعاندين الصادين، ونظرة وخطاب متعدد للعصاة بدرجاتهم حسب حالهم، في آن واحد ومجتمع واحد.

2- كسوف لا غروب

يرفض الداعية أن ينصاع للخداع ولمخططات الكيد اليهودي والصليبي، فيقف يؤذن في الناس، ولكن أكثر الناس نيام، ويرى جلد أصحاب الباطل وتفانيهم لإمرار مخططاتهم، وفي المقابل يرى الداعية السلم غافلاً إلا الذين رحمهم ربهم، وقليل ما هم، **(تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها).**

ذلك وعد الله، وإنه لموكب لن ينقطع أبدا كما وعد المصطفى صلى االله عليه وسلم حين قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر االله وهم كذلك) صحيح مسلم، **فوجود العصبة المسلمة في الأرض، ووجود دعوة الحق، من سنن الكون التي يتحتم وجودها.**

إن إسلامنا نبأ عظيم، وهو من مكملات الناموس الكوني الذي يختل بدونه، فلا بد إذن أن يوجد في الواقع، وتمحى الجاهلية ليتم الناموس من غير اضطراب، (قُلْ هو نَبأٌ عظيم. أَنتُم عنْه معرِضون)، وقد حول هذا النبأ العظيم خط سير البشرية في جيله وفي الأجيال التي تلته، فأرسى من القواعد والقيم والتصورات ما لم يتصوره العرب ولو في الخيال، وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض، **ولكن المسلمين اليوم يقفون من هذا النبأ موقف العرب منه في أول الأمر، لا يدركون طبيعته وارتباطه**

بطبيعة الوجود، ولا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وأنه دور ماض إلى آخر الزمان، فإن **آية الحق وجود المسلم**.

أولو القلوب الحية يدركون بفطرتهم أن تنحية الإسلام عن الحكم كان حدثا هائلا غريبا، لكنه ليس الغروب، وإنما هو حدث شاذ، لقد كان الإسلام قد تسلم القيادة بعدما فسدت الأرض، تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والقيم والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريدا.
ثم وقعت تلك النكبة القاصمة، ونحي الإسلام عن القيادة، نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى، في صورة من صورها الكثيرة، لكنها تنحية لن يسكت عنها دعاة الإسلام، **(ألا كل شيء ما خلا الله باطل)** البخاري، وهو ما عناه ربعي بن عامر (الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله)، (لأن الإسلام هو منهج الحياة الوحيد، الذي يتحرر فيه البشر من عبودية البشر).

سجدة الحرية : إنها سجدة المسلم، عنوان العلو، وشارة الحرية، والبراءة من كل طاغوت، بها يتحرر المسلم من قيد الهوى، فيصبح حراً طليقاً، يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من االله وحده.

المفاهيم الأساسية :

1- يرفض المسلم الانصياع، لكنه يرى جلد أصحاب الباطل وعجز وغفلة المؤمنين إلا القليل.
2- دعوة الحق من سنن الله الكونية (لا تزال طائفة ..).
3- تنحية الإسلام عن الحكم كان حدثا هائلا غريبا كالكسوف، لكنه ليس الغروب.
4- ألا كل شيء ما خلا الله باطل.
5- سجدة الحرية : يكسر بها المسلم قيد الهوى، فلا يتلقى إلا من الله وحده.

3- الأبرار الهالكون

يتأثر تحليل الأحداث وتفسير التاريخ، بالعقيدة أو المرجعية التي يحملها الشخص المحلل أو المفسر، ومن هنا اختلفت التحليلات والتفاسير اختلافاً واضحاً، وهذا مرده إلى اختلاف الميزان فحسب.
ومن أهم الظواهر التي يختلف في تفسيرها وتحليلها، **ظاهرة الاضطراب الاجتماعي المواكب للتقدم العلمي والعمراني والفني**، والمسلم له تفسير واحد لهذه الظاهرة مستمد من القرآن والسنة، وأوجزه الفاروق عمر رضي الله عنه حين سئل (**أتوشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قال: إذا علا فجارها على أبرارها).**
يعلو الفاجر، فيولي أمثاله الأمور، حتى إذا تمادى الفاجر في فجوره، وحتى إذا تمادى الأبرار في خوفهم وجبنهم وسكوتهم وقعودهم عن النهي عن المنكر، **اشتد غضب الله، فإذا غضب عم وشمل غضبه الفجار بما فجروا وظلموا، والأبرار بما سكتوا وتقاعسوا ورضوا الذلة**.

وقد عقب بن تيمية على قوله تعالى: **(واتَّقُوا فتْنَةً لاَ تُصيبن الَّذين ظَلَموا منْكُم خَاصةً)** فقال رحمه الله (الذي يتعدى حدود الله هو الظالم، وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب، أي **لا تختص بالمعتدين، بل تتناول من رأى المنكر فلم يغيره، وأما من ترك الإنكار مطلقا فإنه ظالم يعذب**، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**"). والحقيقة أن أكثر من تكلم في هذه الآيات ذكر أن هؤلاء الذين سكتوا نالهم العذاب بسكوتهم، وشملهم العقاب، وللقرطبي تصريح واضح بذلك.

ويكفي الأمة انحرافا أنها تركت الجهاد في سبيل الله، وأخلدت إلى الأرض، ورضيت بالحياة الدنيا من الآخرة، وأقبلت على الشهوات تعب منها، وأسرفت في المعاصي، حتى أذلها الله، وخذلها الخذلان الأكبر، وجعل قيادتها في أيدي المنحرفين العابثين.

ووعي حقيقة عقاب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يلزم الداعية المسلم بالأخذ بطوق النجاة من هذا العقاب، **وهذا الطوق هو الأمر بالمعروف،**

والنهي عن المنكر، ومنازعة أهل المنكر، وسلوك سبيل الدعوة، والإهابة بالأمة أن تسارع إلى الصلاة وتحكيم شرع االله، من قبل أن يجرفهم "قانون التماثل"، الذي هو من سنة االله العامة في الكون فيهلكوا، ويصيبهم العذاب، من بعد أن ارتكبوا مثل العصيان الذي أهلك االله بسببه الغابرين، وهذا القانون يسري حكمه على الأفراد والأمم على حد سواء، وفي أحوال الدنيا والآخرة.
وعلى هذا دل القرآن الكريم، فمن ذلك:
ا- قوله تعالى مبينا ما جرى لليهود من بني النضير من نكال في الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم العهد وكيدهم للرسول صلى االله عليه وسلم وللمؤمنين: "هو الَّذي أَخْرج الَّذين كَفَروا من أَهلِ الْكتَابِ من ديارِهم لأولِ الْحشْر ..."، فقوله تعالى: "فَاعتَبِروا يا أولِي الأبصارِ" معناها: تأملوا يا أصحاب العقول السليمة بما وقع لهم، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم إذا فعلتم مثل فعلهم، فإن سنة االله واحدة تجري على الجميع.
ب- "ولَقَد أَهلَكْنَا الْقُرون من قَبلكُم لَما ظَلَموا وجاءتْهم رسلُهم بِالْبينَات وما كَانُوا لِيؤْمنُوا كَذَلِك نَجزِي الْقَوم الْمجرِمين"، ففيها أن سنة االله واحدة تجري على جميع المجرمين كما كان من قبل.
ج- "أَفَلَم يسيروا في الأَرضِ فَينظُروا كَيفَ كَان عاقبةُ الَّذين من قَبلِهِم دمر االلهُ علَيهِم ولِلْكَافرِين أَمثَالُها" دليل واضح أن الدمار الذي حل بالكافرين السابقين سيحل بالكافرين اللاحقين، لأنهم متساوون في وصف الكفر والعناد والتكذيب فيتساويان في العاقبة.
د- وكذلك (النساء ١٢٣) فالجزاء يلحق فاعل السوء أياً كان، دون محايدة ولا تمييز ولا تخلف.
فإذا فهم المسلمون مدلول هذه الآيات القرآنية والتي فيها ذم للأقوام السابقة، كاليهود وغيرهم، عرفوا أن الذم كان لهذه المعاني، **وأن الذم يلحقهم لا محالة إذا فعلوا فعلهم، وأن العاقبة السيئة تصيبهم كما أصابتهم، فلا يغرهم مجرد انتسابهم للإسلام من دون عمل وانصباغ بمقتضاه.**

أيها الأبرار الصالحون ... أيها الزهاد العابدون ... أمامكم خطر القانون الرباني الرهيب إن تخارستم، فلا يغرنكم زهدكم ولا صلاتكم، انطقوا بالحق، وانهوا عن المنكر، وإلا ... فهو الهلاك.

المفاهيم الرئيسية :

1- تحليل الأحداث وتفسير التاريخ يتبع العقيدة التي يحملها الشخص.
2- قاعدة هامة : إذا علا فجارها على أبرارها، (واتقوا فتنة لا تصيبن ...).
3- قاعدة هامة : "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم االله بعقاب منه".
4- قانون التماثل الخطير.
5- الأبرار الهالكون.

4- وجوب الدعوة إلى الله

توعد االله سبحانه وتعالى من يصمت ويتخارس ويدع النهي عن المنكر، ووهب الطمأنينة للناطقين بالحق، الذين يبشرون الناس بالجنة، وبسماحة وعدل الإسلام، وينذرونهم عذاب جهنم، فيرثون النبي صلى االله عليه وسلم، الذي وصفه االله تعالى أن أرسله بشيراً ونذيرا.

وقد عرف ابن تيمية رحمه االله الدعوة فقال: (**الدعوة إلى االله: هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا**)، والذي يقوم بأمر الدعوة ويحمل عبئها ليبلغها إلى الناس هو الذي يطلق عليه الداعي أو الداعية.

الدعوة وظيفة الرسل وأتباعهم : والواقع أن الدعوة إلى االله هي وظيفة رسل االله جميعاً، ومن أجلها بعثهم االله تعالى إلى الناس، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله، وإفراده بالعبادة، على النحو، الذي شرعه لهم، كما تبين آيات القرآن، وهكذا جميع رسل االله دعوا إلى االله، إلى عبادته وحده والتبرؤ من عبادة سواه، "**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**"، فرسل االله هم الدعاة إلى االله، وقد اختارهم االله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس.

ما ورد في القرآن الكريم من آيات الدعوة والأمر والنهي : وردت في القرآن آيات كثيرة توجب الدعوة إلى االله، منها ما تخاطب النبي صلى االله عليه وسلم، فتدخل أمته في الخطاب تبعا له، ومنها ما خاطبت الأمة مباشرة. فمن الآيات التي تخاطب النبي صلى االله عليه وسلم (الحج67، القصص 87).

وأما الآيات التي تخاطب الأمة وتوجب عليها أن تأمر وتنهي فكثيرة لا تدع عذرا لمتقاعد متخوف منها (التوبة71) **وقال القرطبي: "فجعل االله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها: الدعاء إلى الإسلام"،** (آل عمران ١١٣-١١٤) وعقب الغزالي رحمه على هذه الآيات "فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **والخيرية التي نالتها أمة محمد صلى االله عليه وسلم، نالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** (آل عمران 110)، والآيات في هذا الباب كثيرة، وما علينا إلا الرجوع لكتاب ربنا فهو المعين الذي لا ينضب.

إذن، **فإن الحريص على إيمانه، الطالب للفردوس وعليين، يحرص أشد الحرص على أن ينطق بالحق، معطياً راحته ووقته وماله، بل روحه ودمه، ثمناً لما يطلب، فإن الدعوة إلى االله واجبة، لا يعذر منها أحد،** إلا من كان مستضعفاً من عوام الناس، البسطاء السذج الذين لا يحسنون النطق وتدبير الأمور.

معنى الكفاية، ورد أوهام القاعدين الصامتين : يتوهم الكثيرون أنهم قد أُذن لهم بالقعود حين قرر الفقهاء أن الدعوة فرض على الكفاية، وليس الأمر كما فهموا، فإن لفظ القيام بها يعني حصول الشيء المأمور به في عالم الواقع وتطبيقه واتعاظ الطائفة المأمورة فعلا، واستعلاء الدين في الأرض فعلا، ومن يستطلع حالة المسلمين اليوم يجد أن الجهود المبذولة في الدعوة إلى االله، لا زالت أقل من المقدار المطلوب لامتناع من يرتكب المعاصي منهم، **ورأس المعاصي الحكم بغير ما أنزل االله، وبآراء العقول والأهواء والأفكار المستوردة، وبالتالي فإنه لم تتم فيها الكفاية، وتصبح فرض عين إلى أن تتم فيها الكفاية،** ومن ثم فإنه لا يسع المسلم اليوم أن يقعد عن الدعوة إلى االله، ونصرة الدعاة، حتى يكون الدين كله لله.

معنى اختصاص الدعوة بالعلماء : لا شك أن الدعوة إلى االله، مشروط لها العلم، ولكن العلم ليس شيئاً واحدا لا يتجزأ ولا يتبعض، إنما هو بطبيعته يتجزأ ويتبعض، فمن علم مسألة وجهل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أنه يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر فيه شرط

وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل، **وعلى هذا فكل مسلم يدعو إلى االله بالقدر الذي يعلمه.**

لا يتم الاهتداء إلا بالأمر والنهي : ومن الشبهات أيضا، الفهم الخاطئ للآية الكريمة "لاَ يضركُم من ضلَّ إِذَا اهتَديتُم"، قوله تعالى لا يقتضى ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا نهياً ولا إذناً، كما في الحديث المشهور في السنن عن أبي بكر الصديق رضي االله عنه أنه خطب على منبر رسول االله صلى االله عليه وسلم فقال: "أيها الناس: إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول االله صلى االله عليه وسلم يقول: **إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم االله بعقاب منه.**
إذن يكون الاهتداء إذا أُطيع االله، وأدى المرء ما عليه من الأمر والنهي وغيرهما، ولكن في الآية فوائد عظيمة :
أولها: أن لا يخاف المؤمن الكفار والمنافقين لأنهم لن يضروه إذا كان مهتديا.
ثانيها: أن لا يحزن عليهم ولا يجزع عليهم، فإن معاصيهم لا تضره إذا اهتدى.
ثالثها: أن لا يركن إليهم، ولا يمد عينه إلى ما أوتوه من السلطان والمال والشهوات.
رابعها: أن لا يعتدى على أهل المعاصي زيادةً على المشروع في بغضهم أو ذمهم أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم، بل يقال لمن اعتدى عليهم عليك نفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت.
خامسها: أن يقوم بالأمر والنهي على الوجه المشروع، من العلم والرفق والصبر وحسن القصد وسلوك السبيل القصد.

ويجب الانتباه إلى أن السكوت عند قوة أهل الفجور وأذاهم للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إنما يقتصر على العامة من المستضعفين، وأما الدعاة والقادة والعلماء فيأخذون بالعزيمة، ويصدعون بالحق وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت.

إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولتقرير ألوهية االله في الأرض، ولإقامة شريعة االله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها، لابد من جهد، بالحسنى حين يكون الضالون أفرادا يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبكل

وسيلة مشروعة وممكنة، حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين االله أن يوجد، وتعوق شريعة االله أن تقوم.

وبعد ذلك –لا قبله- تسقط التبعة عن الذين آمنوا، فإن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان، **وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية االله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.**

المفاهيم الرئيسية :

1- الدعوة إلى االله هي وظيفة رسل االله جميعاً وأتباعهم : عبادته وحده والتبرؤ من سواه.
2- أدلة وجوب الدعوة إلى الله.
3- إن الدعوة إلى االله واجبة، لا يعذر منها أحد.
4- الأمر والنهي أساس في الدعوة، وهما يفرقان بين المؤمن والمنافق كما قال العلماء.
5- قتال أهل البغي واجب، وهو من النهي عن المنكر.
6- فرائض الكفاية الكبرى في زماننا هي فرائض عين لعدم حدوث الكفاية فيها.
7- خطأ فهم اختصاص الدعوة بالعلماء، فالعلم يبعّض ويجزّأ، ومن علم مسألة دعا إليها وأمر بها.
8- لا يتم الاهتداء إلا بأداء الواجب من أمر ونهي وغيرهما.
9- إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم االله بعقاب منه.
10- الدعاة والقادة والعلماء يأخذون بالعزيمة، ويصدعون بالحق وإن لحقهم الأذى.
11- إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح.
12- الآية لا تسقط عن الفرد أو الأمة التبعة في النهي عن المنكر، خاصة المنكر الأكبر.

5- العابدون اللاعبون

إن الأكثرين لا زال الحزن على واقع المسلمين يستهلكهم يوماً بعد يوم، ولم يعرفوا طريق العمل، أو عرفوه ومنعهم الخوف من تحمل التضحيات عن العمل، أو منعهم الحرص على المال والمصالح الدنيوية، فانعزلوا في مساجدهم وبيوتهم، يبكون الإسلام، **إنه حزن قاتل، وتعبد مرجوح، وعزلة مضيعة، وبدعة هادمة، وإن تجلل كل ذلك بالإخلاص والنية الصالحة.**

من يقاتل العدو إذا اعتزلتم : ... فقال لهم عبد الله بن مسعود : لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا. ولعلهم أخذوا هذه البدعة عن النصارى لوجودهم حول ديارهم، **نعم من يقاتل العدو إذن لو اعتزل العابدون؟** من يرد كيد الصهيونية والماسونية، والدعاية الشيوعية الإلحادية، إذا بقي المصلون في مساجدهم لا يضمون جهودهم إلى جهود دعاة الإسلام؟.

ابن المبارك يرث ابن مسعود : أرسل ابن المبارك أبيات قوية للفضيل العابد الزاهد الثقة يصفه بأنه عابد لاعب بعبادته لترك الجهاد (وكان فرض كفاية في ذلك الوقت)، فهل لنا أن نقول لمتزهد اليوم إلا كما قال ابن المبارك: يا عابداً لو أبصرت دعاة الإسلام يصاولون دعاة الكفر والضلال لعلمت أنك بالعبادة تلعب.
ولئن انحنت ظهور بعض المتعبدين اليوم من كثرة الصلاة، وجفت حلوقهم من مواصلة الصوم، فإن دعاة الإسلام قد جفت حلوقهم من كثرة السعي والحركة، وبذلوا دماءهم، واهتزت حبال المشانق بأجسادهم.

الشيخ الكيلاني على الدرب : وتتلاحق من بعد ابن المبارك أجيال، وإذا بالهمم تضعف مرة أخرى، وإذا بالزهاد والعباد يعتزلون في الرباطات، ويتركون إرشاد الناس، ويعافون الدعوة، فيشيع الاضطراب في المجتمع المسلم مرة أخرى، فقيض الله الشيخ القدوة العارف الفقيه عبد القادر الكيلاني للناس ليدعوهم ويذكرهم (المبتدي يهرب من الفساق والعصاة، والمنتهي يطلبهم، كيف لا وكل دوائهم عنده ... من كملت معرفته لله عز وجل صار دالا عليه، يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا ... **يا زهاد الأرض تقدموا، خربوا صوامعكم واقربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل، ما وقعتم**

بشيء، تقدموا)، قال هذا وهو في الشيخوخة.... خرب صومعتك أيها الهارب، وخذ مكانك في صفوف الدعاة المجاهدين.

ابن الجوزي يصف حالة الشجعان : ومن بغداد اندفع ابن الجوزي يفضح ويقول (الزهاد في مقام الخفافيش ... وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام)، وهكذا استمرت كلمات الواعين في كل جيل، لا يسوغون لأحد أن يعتزل ويقعد عن الدعوة إلى االله ولو أكثر العبادة.

دع بيتك وراء ظهرك : والقعود في البيوت، من بعد الاعتزال في المساجد، أكثر بعداً عن صفة المسلم الكامل، ولذلك كان للصحابة رضي االله عنهم إنكار شديد على من يتوارى في بيته، ويأنس بالقرب من زوجه وأولاده، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتخلى عن مكانه الذي يجب أن يحتله في صف المحاربين للطواغيت، قال **طلحة بن عبيد االله القرشي** رضي االله عنه (**إن أقل العيب على المرء أن يجلس في داره**).
قال **الغزالي** (**اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر**)، وذكر **ابن القيم** رحمه االله أن (**الشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته: وقوفه في الصف ساعة، وجهاده أعداء االله، أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع**، والعالم الذي قد عرف السنة، والحلال والحرام، وطرق الخير والشر، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح)، وكما تتفاضل الأعمال في الميزان الإيماني الإسلامي، فإن العمل الصالح الواحد يتفاضل تطبيقه أيضا من شخص إلى شخص وظرف إلى ظرف ووقت إلى وقت.
فلا يحتجن أحد بأحاديث فضل النوافل والتسبيح ليسوغ اعتزاله الناس، ويترك مهمته الإرشادية التي يلزمه إياها عمله الذي تعلمه، **فإن مباشرة الدعوة خير من مباشرة النوافل.**

الداعية رحالة : على داعية اليوم أن يكون رحالة سائحاً في محلات مدينته، ومدن قطره، يبلغ دعوة الإسلام، ... قال للنبي صلى االله عليه وسلم (يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن االله أرسلك)، **أتاهم رسوله داعياً، وكذلك الناس تؤتي، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية**، وهذا شأن الدعوة

التي تريد أن تصل إلى أهدافها، **لابد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم**، ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة، فافقه سيرة سلفك وقلدهم، تصل، وإلا ... فرواح في مكانك، فإنك لن تبرحه.

المفاهيم الرئيسية :

1- حزن قاتل، وتعبد مرجوح، وعزلة مضيعة، وبدعة هادمة، وإن صلحت النية.
2- من يقاتل العدو إذا اعتزل العابدون والصالحون.
3- يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب.
4- صار دالا عليه، يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا .. خربوا صوامعكم.
5- إن أقل العيب على المرء أن يجلس في داره.
6- تفاضل الأعمال في الميزان الإسلامي، وحسب الشخص، والظرف، والوقت.
7- لابد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم، وليس القعود والتمني.

6- غطة من جهبذ

إن من يريد المنزلة العليا القصوى من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا، واحدة بواحدة، ولكل سلعة ثمن. وما هذه المنزلة القصوى في الدنيا إلا منزلة الدعوة إلى الله، فالفائز عند الكيلاني من اختاره الله، وجعله جهبذا وداعيا للعباد ونذيرا لهم وحجة فيهم هاديا مهذبا.

المؤمن الأخرس متأخر : يقول الكيلاني رحمه الله (إذا صلح قلب العبد للحق عز وجل، وتمكن من قربه، أعطى المملكة والسلطنة في أقطار الأرض، وسُلم إليه نشر الدعوة إلى الخلق، والصبر على أذاهم، يُسلم إليه تغيير الباطل، وإظهار الحق)، **فالباطل يجب أن يُغير، يغيره الداعية، أي يحاربه، ويزيله،** ويهيل عليه التراب يقبره، أما أن ترجو من الباطل أن يترك مكانه ويعطيه إياك ... وأما ان تتكلم معه باللغة الدبلوماسية، فذلك لن يكون ولن يفيد، إنما هو التغيير فقط ينص عليه قانون الدعوة.

نصل الماضي بالآتي : الإسلام اليوم أحوج ما يكون إلى **جماعة من الدعاة الذين يملكون هذه النظرة التغييرية المفاصلة،** وأنهم حلقة تصل الماضي بالآتي، غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون، والغرس يقتضي مخالطة الناس، ومشافهتهم، والصدع بالحق.
إن مشكلة الملتزمين بالإسلام في أنهم لا يصدعون بإسلامهم، ولا يدعون، أو يدعون من غير تنسيق بينهم (**ولو أنهم صرفوا أكثر جهدهم في تذكير المسلمين بشريعتهم المعطلة وقوانينهم المخالفة للشريعة وحكم الإسلام فيها لكان خيراً لهم وللإسلام**).

الإمام أحمد يباشر التجميع : كان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاح، أو زهد، أو قيام بحق، أو اتباع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله، وكان موسى بن حزام في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله بأحمد بن حنبل، فانتحل السنة، وذب عنها، وقمع من خالفها، مع لزوم الدين، حتى مات.
لابد للداعية من اتصال بالناس، ولابد له من مجالس يعلمهم فيها، لابد له من ترك زوجه وأولاده ومجالس الدنيا وهموم التجارة بضع ساعات في كل يوم، إنها غطة العزم، غطك الدعاة، وعليك أن تغط غيرك هذه الغطة الواجبة، التي تضع حدا فاصلا بين عهد الرخاوة، وعهد حمل الأمانة بحزم وعزم ووفاء.
يقول الكيلاني (إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي: شبعت وارتويت، واكتسيت، وفرحت، كيف خرج مثله من تحت يدي)، هذا شبعهم وريهم، لا في تأليف الكتب فحسب.

فقه الوزير الداعية : يقول الفقيه المحدث العابد الوزير العباسي الصالح ابن هبيرة الدوري رحمه االله عن قوله تعالى "وجاء رجلٌ من أَقْصى الْمدينَة يسعى": "تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا الرجلان جاءا من بعيد في الأمر بالمعروف، ولم يتقاعدا لبعد الطريق". جاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

المفاهيم الرئيسية :

1- من يريد المنزلة العليا القصوى من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا: الدعوة والجهاد.
2- الداعية يجب أن يُغير الباطل : يحاربه ويزيله، والدبلوماسية لن تفيد.
3- التذكير بالإسلام المعطل جلّه، والشريعة المعطلة، خير من إكثار العبادة، والمواعظ.
4- لابد للداعية من اتصال بالناس، ولابد له من مجالس يعلمهم فيها، لابد له من ترك زوجه وأولاده ومجالس الدنيا وهموم التجارة بضع ساعات في كل يوم.
5- لابد من البذل (أقصى المدينة) لدعوة القوم إلى الحق، وكفهم عن البغي والعدوان.

7- جهاد الحجة

وعي المسلم لوجوب الدعوة إلى االله، وفقهه لهذه المسألة الحدية، ووضوح رؤيته لهذا المعلم البارز من معالم الطريق الإسلامي: كل هذا يحدد نقطة البدء والانطلاق في مسيرة الفرد المسلم في الحياة، يقول الحسن البصري رحمه الله (هو المؤمن أجاب االله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب االله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، فهذا حبيب الله هذا وليّ الله)، ويقول ابن القيم (**مقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد**).

أقباس متشابهة من نور واحد : **فلأن منهجهم هو جعل القرآن والحديث الصحيح مصدر الفهم، اتحدت أقوال هؤلاء الرهط الفاضل الذين ننقل عنهم ومفاهيمهم**، وسيظل سير هذه الطائفة الظاهرة على الحق، الأخذة بالمعنى الظاهر، إلى يوم القيامة، بعكس منهج الطوائف الأخرى التي حددتها ابتداء تأثرات فلسفية، وميول ابتداعية، وشهوات بدنية ونفسية، وتخوفات، وجبن وحرص، فما عادت تفتش إلا عما يوافق الذي وقر في عقولها ونفوسها، وتعرض عما يفضحها، أو تتمحل وتتكلف لصرفه عن معناه الظاهر.

في سورة العصر كفاية : يقول ابن القيم (كمل نفسه بالعلم النافع، والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته بالصبر عليه ... فإن كان من

عدا هؤلاء فهو من الخاسرين)، فالدعوة إلى الحق والتبشير به: فرع الإيمان بالحق ومعرفة الحق، **ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح، بعد أن يعرفه ويتبعه، فهو من الخاسرين،** فإذا أصلح نفسه، وجب عليه إصلاح غيره، والدعوة إلى الإصلاح تشمل الناس جميعاً، كل على حسب طاقته، وبقدر نطاقه الذي يحيط به، والنص في هذه الآية صريح، لا يقبل التأويل.

الداعية مجاهد مهاجر : عد الله الأمر والنهي جهاداً، والثبات على الدعوة هجرة، يقول ابن القيم (فجاهدهم به، أي بالقرآن، جهادا كبيرا، فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة)، **فالدعوة والأمر والنهي والتواصي: نوع من الجهاد.**
قال ابن تيمية في تفسير (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم): (**هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة**، وهكذا قوله تعالى (والَّذين هاجروا من بعد ما فُتنُوا ثُم جاهدوا وصبروا إِن ربك من بعدها لَغَفُور رحيم) **يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه أو أوقعه في معصية، ثم هجر السيئات وجاهد نفسه وغيرها من العدو**، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك، وصبر على ما أصابه من قول أو فعل، واالله سبحانه وتعالى أعلم).
إلحاح الكيلاني في بيان وجوب الدعوة : يقول الكيلاني (**من صحت تبعيته للرسول صلى االله عليه وسلم ألبسه درعه وخوذته، وقلده سيفه**، ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خلعه، واشتد فرحه به).
ثم يوجز صفات الداعية وشروط التوثيق في صفة واحدة جامعة لصفة التجرد الكامل والانغماس بكله في الدعوة، حتى ينسى نفسه ويعود لا يرى إلا من يدعوهم، ولا يتكلم إلا بما يفيد من يدعوهم (**يصير كأنه لا نفس له ولا طبع ولا هوى، ينسى طعامه وشرابه ولباسه، يصير ناسيا لنفسه، ذاكرا لخلق ربه عز وجل، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق، ويبقى بربه عز وجل**، كل طلبه نفع الخلق، قد سلم نفسه إلى يد قضاء ربه عز وجل).
<u>**هذه صفة من يريد أن يكون ضمن القاعدة الصلبة التي يبنى عليها الإسلام الآن، وواالله لا نجاح للدعوة، ولا وصول، إن أعطيناها فضول الأوقات، ولم ننس أنفسنا وطعامنا.**</u>

المفاهيم الرئيسية :

1- مقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد.
2- لأن منهجهم هو جعل القرآن والحديث الصحيح مصدر الفهم، اتحدت أقوال هؤلاء الرهط الفاضل.
3- من لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح، بعد أن يعرفه ويتبعه، فهو من الخاسرين.
4- الداعية الآمر الناهي مجاهد مهاجر.
5- لا نجاح للدعوة، ولا وصول، إن أعطيناها فضول الأوقات، ولم ننس أنفسنا وطعامنا.

8- أصول فقه العمل الجماعي عند السلف

الطريق إلى االله واضح مستقيم : أن تذر آراء الطواغيت الذين يشرعون من دون االله، وتكون داعياً إلى االله، آمرا بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ويقول ابن الجوزي (هل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق وحثهم على الخير ونهيهم عن الشر).

كن من رجال العامة : خطواتك الأخرى في هجرتك إلى االله أن تتسع في نطقك بالحق، وتقصد العامة، فتكون لهم إماما، وقدوة، وقائدا، ومرشدا.

وصف بن حنبل أنه نصب إماما للعامة، ووصف الأوزاعي أنه كان رجل عامة، وغيرهم كثير، كانوا ينزلون إلى الجموع، ويقودونها، كما قاد الإمام أحمد جموع الخير في معارضة الجهمية والمعتزلة الذين أرادوا حرف عقيدة الأمة ببدعة خلق القرآن، **ونازع الدولة كلها حين أرادت فرض البدعة بالقوة**.

وكان الإمام الزهري ينزل بالأعراب يعلمهم، وكان الفقيه الواعظ أحمد الغزالي يدخل القرى والضياع، ويعظ لأهل البوادي تقربا إلى الله.

ابن تيمية يسوغ العمل الجماعي : عرف هؤلاء الأئمة أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فانخلعوا عن الفردية، وعملوا عملا جماعيا، مهما تسمى هذا العمل الجماعي بأسماء مختلفة.

يقول ابن تيمية رحمه االله (وأما لفظ "الزعيم" فإنه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين، فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال: هو زعيم، فإن كان قد تكفل بخير، كان محموداً على ذلك، وإن كان شراً كان مذموماً على ذلك، وأما "رأس

الحزب" فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر االله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم).
قال ابن القيم (وفي تفسير آية (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يقول الفراء وجماعة: يعني: ومن اتبعني يدعو إلى االله كما أدعو، وقال الكلبي : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه).

يأمرون بالمعروف في رجال معهم : وهذا المعني فقهه الصحابة والسلف الصالح ووعوه وعياً كاملاً، فلم يكتفوا بالدعوة الفردية، **وإنما أسسوا الجماعات للدعوة إلى االله وعملوا عملاً جماعياً**، منهم الصحابي هشام بن حكيم بن حزام القرشي رضي االله عنه، قال الزهري: كان يأمر بالمعروف في رجال معه. قال ابن الجوزي: (قال ابن عقيل: رأينا في زماننا أبا بكر الاقفالي، في أيام القائم، إذا نهض لإنكار منكر **استتبع معه مشايخ لا يأكلون إلا من صنعة أيديهم**، كأبا بكر الخباز، شيخ صالح أضر، أي صار ضريراً، **وتبعه جماعة ما فيهم من يأخذ صدقة، ولا يدنس بقبول عطاء**، أي هدية سلطان، **صوام بالنهار، قوام بالليل، أرباب بكاء، فإذا تبعه مخلط رده وقال: متى لقينا الجيش بمخلط انهزم الجيش)**.
وبدون مثل هذه الشروط الصعبة تغدو الجماعة الإسلامية مأوى للضعفاء، وتفقد صلابتها، ويحرمها االله نصره.
لا يشترط إذن السلطة : أفاد الإمام الغزالي بجواز تكوين جماعة للأمر بالمعروف، ودلل على عدم اشتراط الشريعة إذن السلطة في ذلك (**ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار، قمعا لأهل الكفر، وكذلك قمع أهل الفساد جائز**، لأن الكافر لا بأس بقتله، والمسلم إن قتل فهو شهيد، **وكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب الحق إن قتل مظلوما فهو شهيد ... وكل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده، وبسلاحه، وبنفسه، وبأعوانه** ... فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على ان كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى، إذ يجب نهيه أينما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له ... **واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض** ... فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه ... وفي الحديث (من راى منكم منكرا فلينكره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم

يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان)، **فلقد كانوا فهموا من هذه العموميات دخول السلاطين تحتها، فكيف يحتاج إذنهم).**

المفاهيم الرئيسية :

1- الطريق إلى االله واضح مستقيم.
2- كن من رجال العامة، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الله، وتبين الحق.
3- ابن تيمية والسلف يسوغون العمل الجماعي.
4- يأمرون بالمعروف في رجال معهم ذوي صفات عالية شديدة، وإلا كانت مأوى للضعفاء.
5- الغزالي: لا يشترط إذن السلطة + يجوز قتال الكفار + يجوز قتال الفاسق المناضل عن فسقه.
6- الغزالي: كيف يحتاج إذنه في الإنكار عليه أو على غيره، والنص العام يدخل فيه السلاطين.

9- فقه العمل الجماعي في صياغته الحديثة

نكبتان كبيرتان حدثتا في تاريخ الإسلام، أتعبتا عموم المسلمين، ولمدى أجيال، بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر كثيرة.

النكبة الأولى، أحدثها هولاكو، وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الإسلام. والناظر لهذه النكبة يجد أنها ما كانت بدعة عما يصيب الأمم في فترات ضعفها، وتوقعها الكثير من العلماء، وحذروا الأمة وأولى الأمر من وقوعها قبل سنين طويلة من السنة التي وقعت فيها، وهي سنة ٦٥٦هـ، **لما رأوه من تردي أحوال العامة في عقيدتها وأخلاقها، وبعد جهاز الدولة عن الجد والتجرد، وضعف هيمنة الخلفاء، وعزوف جمهور العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتهائهم بالجدل والمناظرات الجافة الموغرة للصدور.**

وبعد قرون من نكبة بغداد، استطاعت الدولة العثمانية في عصرها الأوسط، وبمجئ بعض السلاطين الأقوياء الذين تمكنوا من توسيع رقعتها، أن ترث هيبة العباسيين، وتعيد إلى الأذهان معنى الخلافة الأقرب إلى سمتها الأول الذي عهد المسلمون في أواسط الخلافة العباسية.

وأما النكبة الثانية، فاحتلال الجيوش الإنكليزية والفرنسية لبلاد الإسلام في الحرب العالمية الأولى، وقضاؤهم على آخر صورة يمكن أن تسمى بأنها إسلامية كما قلنا ممثلة في الحكم العثماني، أو بعبارة أدق قضاؤهم على أي احتمال قريب لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الإسلام.
وبرزوح البلاد الإسلامية تحت حكم الجيوش الاستعمارية، عادت الجاهلية إلى أرض البلاد الإسلامية، وضربت أطنابها، وتمكنت من قيادة المؤسسات السياسية، والأجهزة التربوية، والبيوت التجارية والمالية، واستطاعت بذلك من دخول القلوب بالترغيب والترهيب.
وبعودة الجاهلية، عادت الحاجة إلى من يجاهدها ويعيد حكم الإسلام.

مبادرة عاكستها الظروف : المحاولة الواعية جاءت بعد سنين من بغداد على يد رجل من كبار العسكريين أيام عبد الحميد، ويعرفه العراقيون بالنبل والتقوى والشجاعة، ذلكم هو "محمد فاضل باشا الداغستاني" رحمه االله، إذ أنه أسس مع بعض خيار من أعيان بغداد من آل الخطيب وغيرهم ما سموه بـ"الحزب الإسلامي" سرا سنة ١٩١٣م، ونص منهاجهم على مناهضة حكم الاتحاديين، وإعادة الحكم إلى سمت إسلامي شرعي واضح.
ثم مات البطل الداغستاني فيما نحسبه شهادة بشظايا طلقة مدفع خلال معركة حصار الكوت، تلك المعركة الظافرة الرائعة التي انتهت بهزيمة الإنكليز أمام بعض بقايا جيش الأمة الإسلامية.
تجدد الذهول : ولكن انتهاء الحرب العالمية، وتسلط الجاهلية، تركا عموم المسلمين في ذهول شديد وحيرة، نعم، كانت هناك أصوات مخلصة كثيرة في بقاع الإسلام، لكنها ما كانت تعرف طريق العمل الصحيح، ولا الصفاء الإسلامي الكامل.

إدراك الذات : ولأن هذه الأمة تولد من دعوة رجل واحد فقيه ذي همة، فقد تحددت صفة الخطوة الأولى في طريق انتشال الأمة من الذهول وإرجاعها إلى الإسلام، أن يبادر قلب جليل فيدق صدره أمام جماهير المسلمين، ويقول : هاآنذا، على صفاء عقائدي، وتجرد سلوكي تلحظونه فتجمعوا حولي.
فالإسلام، كما يقول المودودي، لا يعرف أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلف ... ولذلك كان، ولا يزال، **الدين الإسلامي**

في كل عصر في حاجة إلى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره إلى الإسلام، سواء أكان عملهم في ذلك محيطاً شاملاً أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصرا، وهؤلاء هم الذين يدعون بالمجددين ... لأن الذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، ولا يشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات، والذين لا يطلبون في هذه الدنيا إلا الراحة والسهولة والرغد، لا تجد لهم فعلاً يذكر في التاريخ الإنساني، **وإنما يكون تشكيل التاريخ من شأن الأبطال وحدهم، وهم الذين قد غيروا أبداً مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم، وبدلوا أفكار العالم.**

ها أنا .... يقولها حسن البنا : وكان هذا البطل الشجاع الذي دق صدره وقال: هاأنذا، هو الإمام حسن البنا رحمه االله، ورفع صوته عالياً معلنا بداية التجمع والمسير سنة ١٩٢٨.

توجد نقطة البدء، نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضى القافلة في الطريق الطويل الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة، ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك كما وصلت القافلة الأولى.

وهذه ليست مسألة هينة، ولا أنها معركة قصيرة.. ولكنها مضمونة النتيجة.. كل شيء يؤيدها.. كل شيء حقيقي، وفطري.

إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام .. أن يوجد في بقعة الأرض ناس يدينون دين الحق، فيشهدوا أن لا إله إلا االله، وأن محمداً رسول االله .. ومن ثم يدينون الله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع، ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان ... **إنه لابد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق ... فالمنهج إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه، بقدر طاقتها، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، وفي حياتهم كذلك** ... ولابد من البعث الإسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث، وبين تسلم القيادة، **فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها** (سيد قطب).

وسيندم من لم يلتحق مثلما ندم وتوجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مبكرا.

وكم من أناس اليوم لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن، يدعوهم واقع المعركة الإسلامية إلى أن يكونوا الأوائل والمقدمة، والنبلاء، والقادة، فيأبون إلا أن يكونوا مؤخرة.

لابد من سلوك طريق الدعوة التي تتجمع على أساس طاعة لأمير، وتلح في التربية، وتخطط لتغيير الواقع الذي يضغط عليها، واستبدال حكم إسلامي به، وكل الجماعات مدعوة إلى أن يراجع أفرادها أنفسهم، فيصححوا عقائدهم إن كان فيها نوع من بدع، ويعلوا هممهم إن كان يعتريهم نوع خوف، ويتخلوا عن الأنانية وحب التزعم، **ثم يبايعوا حراً يتميز بهم في حركة إسلامية واضحة الهدف التغييري، متينة التوجيه التربوي، رصينة الصف التنظيمي.**

إن االله قد أمر بإقامة الحكم الإسلامي، ويجب أن تكون من الأعوان، لا تتخلف، وامض، وبادر، ولا تقعد في بيتك، ولا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري.

يقول الإمام ابن تيمية في معرض شرحه لحديث الغربة (وقوله صلى االله عليه وسلم ثم يعود غريباً كما بدأ، **أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه ... (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم) فهؤلاء الذين يأتي بهم الله يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك)**.

الرواد يصفون الطريق : ينبه الإمام البنا (**وجوب الجد والعمل، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه، والتأسيس بعد التدريس**)، (إن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: **مرحلة الدعاية والتعريف** والتبشير بالفكرة، وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، **ومرحلة التكوين** وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، **ومرحلة التنفيذ** والعمل والإنتاج).

يقول المودودي (**إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض االله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام**. فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق، لا ينتهي عمله إلا بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام)، **(ولعمر الحق إنه لو لم يكن على وجه الأرض إلا رجل واحد مؤمن، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل،** حينما يجد نفسه وحيدا فاقدا للوسائل اللازمة، أو ان يحاول التستر وراء الحيل الشرعية، كالاقتناع بأهون البليتين، **بل الحق أنه لا يكون أمامه إلا طريق واحد وهو أن يدعو الناس كافة إلى منهاج الحياة الذي يرضي به الرب تعالى**. فإن لم يستجب لدعوته أحد،

فإن قيامه على الصراط المستقيم، واستمراره في دعوة الناس حتى يلقى ربه، **خير له ألف مرة من أن يتنكب الصراط الحق، ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلالة والغواية).**

يقول شكيب أرسلان (... ويكون جوابي دائماً: يجب أن نؤسس من تحت يجب أن نربي الفرد ... أما أن نعقد مؤتمراً مجموعاً من ضعفاء ليس لهم إرادة مستقلة، وهم لا يقدرون أن ينفذوا قراراً، فما فائدة ذلك، أتريد أن نجمع أصفاراً).

المفاهيم الرئيسية :

1- نكبتان كبيرتان : هولاكو وسقوط بغداد، واحتلال الغرب لبلاد الإسلام.
2- أسباب حدوث النكبتين متقاربة.
3- عادت الجاهلية وتمكنت من قيادة كل شيء في بلاد الإسلام.
4- وبعودة الجاهلية، عادت الحاجة إلى من يجاهدها ويعيد حكم الإسلام.
5- كانت محاولات وأصوات مخلصة لكنها لم تصل إلى شيء.
6- الإسلام لا يعرف أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلف.
7- نقطة البدء هي استقرار هذه الحقيقة في قلب ثم في قلوب العصبة المؤمنة، ثم تمضى القافلة في الطريق الطويل الشائك.
8- لابد من حركة إسلامية واضحة الهدف التغييري، متينة التوجيه التربوي، رصينة الصف التنظيمي.
9- هذا الدين أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وهؤلاء الذين يأتي بهم الله يقيمونه إذا ارتد عنه هؤلاء.
10- مراحل الدعوة الثلاث – وجوب الإمامة – ولو كنت وحدك – لا لاجتماع الاصفار.

10- تنسيق وشمول

سمتَان ما زال الإسلام يعرف بهما : سمتُ الاستعلاء على المبادئ الأخرى جازماً بضلالها، وسمت التبرؤ من الأغيار، ومفاصلتهم، وهجر كل صاحب

هوى. وفي هذين السمتَين تعبير عن فطرة التغيير التي طبع االله الإسلام عليها، **فغدت مناهج المهادنة، والمصالحة والتعايش بين الإسلام والكفر فاشلة**.

اختلاف المنطق ينفي اللقاء : وقد ركز شعراء الدعوة على بيان هذه الفطرة التغييرية الإسلامية، فلا ندع الامر لكل ضال، فهذه حالة من الواجب أن نرفضها. **إنها مفاصلة حتمية،** لمجرد هذا المنطق المختلف والطريق المتعاكس، فكيف وقد صار العدوان.

الانسياب الموزون وليد المركز الثابت : فقد يكون الدعاة دعاة فكرة مجردة، تراهم كأروع الدعاة فهما للإسلام وعقيدته وأنظمته وقوانينه، ولكنهم قادة نفوسهم، لا يبالون إن وافقت أعمالهم الدعاة الآخرين، أم خالفوها منفردين. أولئك أبعد الناس عن الوصول إلى ثمرة إيجابية، وأولئك هم المراوحون، أما الذين يفتحون للأمة اليوم نافذة تطل بها على نوع أمل، فإنما هم المنسقون، **فالتنسيق أولا.**
وإن الخطة البارعة بإمكانها أن تجعل التنظيم مركزا تسير في فلكه جهود الأفراد في انسيابية هندسية جميلة ليس فيها اضطراب، **فليس في الجهود المبذولة ما هو صغير إذا جاء في حينه المناسب، ومكانه المناسب،** وإنما كل الأعمال على بعد واحد من المركز إذا كانت ضمن الخطة موزونة مقدرة.

تكامل في التطبيق : ثم يكون الشمول ثانيا، وهو شمول بالسعة التي بلغها الإمام البنا رحمه االله في الأصول العشرين، **إنها سعة في الفهم، توجب على تجمع العاملين سعة أخرى في الأسلوب والتطبيق.**
فليست الدعوة الإسلامية حزباً سياسياً، وإن كانت ساعية إلى الحكم، **ولا هي مجمعاً فقهياً محضاً،** وإن كانت تحرص على الثقافة الشرعية، **ولا هي دار نشر، أو وكالة إعلامية،** وإن كانت الصحافة وملاحقة الأحداث وبيان حكم الإسلام فيها من تمام واجباتها، **ولا هي بعد ذلك منظمة فدائية، أو مؤسسة عسكرية،** أو فرقة كشفية، **وإن كان الجهاد أصلاً من أصولها، كما أنها ليست جمعية خيرية، أو وزارة أوقاف،** وإن كانت تأخذ بيد اليتيم والفقير، وتسعف المريض.
نعم ليست الدعوة شيئا من ذلك، ولكنها كل ذلك، **فإن تزاحمت الحاجات وقصرت الطاقات كان تقديم الأهم وفق نظرة نسبية، تبعاً لميزان التوفيق بين**

<u>المصالح والمفاسد المتعارضة</u>، بإهدار كل مصلحة صغيرة يؤدي الحرص عليها إلى تفويت مصلحة أكبر منها، واحتمال اليسير من المفاسد، لدرء ما هو أعظم.

قيادة المسلمين أولى من زيادة البر : إن الأكثرين ممن نخاطبهم اليوم ينقصهم الوعي السياسي، والمنهج الفقهي، ولم تتوهج فيهم بعد روح الجهاد، ولكن الجانب الخيري هو الذي مازال يحتل شطراً واسعا في تفكيرهم، ولكن داعية الإسلام قد رصدته صفته لأهم من الجانب الخيري، وعليه أن يسد ثغرات ما نرى في الأمة من يسدها إلا هو، فإن أمام الداعية **تنفيذ هذا الواجب التجميعي التربوي الثقافي الإعلامي السياسي الجهادي الخيري، في شموله الواسع وتكامله المترابط.**

<u>وهذا هو التميز الثاني، من بعد التميز الأول عن عامة المسلمين بواسطة الجماعية في العمل</u>، وهو تميز قديم أمر به إمام دعاة زمانه أحمد بن حنبل رحمه الله، فرأى ألا يبذل الداعية وجهه، بالتعرض إلى جمع المال من الأغنياء، ولو لمصلحة عامة، فقد يحبس هذا النشاط لسان الداعية عن قول الحق، أمراً أو نهيا، كما رأى التفرغ، بهيبة كافية، لقيادة جمهور المسلمين، ومصاولة الابتداع وأعداء الإسلام، والأمر بالمعروف، ونشر العلم.

وهذا الإفتاء قريب مما ذكره فقهاء الأحكام السلطانية، حين **أوجبوا على الخليفة أن لا يتشاغل عن سياسة الدولة وتدبير الجيوش بالعبادة وأعمال البر الشخصية**، قال الماوردي أن من واجبات الخليفة: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة، وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح.

ولذلك كانت حالة الشمول سمواً، لا يقوى عليها إلا أشداء المؤمنين.

المفاهيم الرئيسية :

1- سمتان أساسيان للإسلام : الاستعلاء، والمفاصلة والبراء.
2- اختلاف المبدأ ينفي اللقاء.
3- وجوب العمل الجماعي، التنسيقي، فضمن الخطة لا يوجد عمل صغير.
4- شمول الفكر يستوجب شمول التطبيق.

5- إن تزاحمت الحاجات وقصرت الطاقات كان تقديم الأهم وفق نظرة نسبية، تبعاً لميزان التوفيق بين المصالح والمفاسد المتعارضة.
6- الواجب التجميعي التربوي الثقافي الإعلامي السياسي الجهادي الخيري، في شموله الواسع وتكامله المترابط أولى من زيادة البر والعبادة والتلذذ بهما.

11- راية الخير

يعيش الغرب حالة من الخواء الروحي، والانحدار الجنسي، والتمييز العنصري، والظلم الاستعماري، وهذا في حد ذاته فضيحة كبيرة للحضارة الغربية، وهذه الحالة هي نفسها التي أرهقت المجتمعات الشيوعية.
أن شعوب الأمة الإسلامية قد ملت وسئمت ما اقتبسوه لها، ولكن بينها وبين الوصول إلى دار السلام مفازة، ولابد للمفازة من دليل خبير متفرس، فإن وجد الدليل فالوصول قريب.

جاذبية الدعاة : إن في إدراك الذات قوة جذب تجبر الآخرين على الارتباط بها، **فإذا جمع المسلم الحر الفطن ذاته فكان داعية، فإنه يدير من يريد في فلكه،** فأنتم أنتم أيها الدعاة من يتحكم في الأمر، وإنما شد القوة في الاجتماع، ونتيجة الاجتماع أن يكون الصف، **ومن أتى صفا غَلب، إلا أن يشاء االله غير ذلك.**
إن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم، ولا ينتصر دعاة الإسلام اليوم إلا إذا جمعوا خيرهم ثم أتوا صفاً واحداً متراصاً مقتحماً.

ارفع للخير راية : ولكن كيف يتم التجمع بلا مبادأة من صاحب خير، إنها المبادأة اللازمة، ففي الأمة أخيار أكثر من الأشرار، ولكنها راية رفعت للشر فأوى إليها أشرارها، وهرع نحوها أنصارها، ونفر منها الأخيار فلم ينحازوا إليها، ولم نسمع أصواتهم حولها، **ولو رفعت للخير راية لانحاز إليها الأخيار في كل طائفة، وغلب بها الخير في الأنفس التي يغلب خيرها شرها.**
الهجرة المفضولة : كان الإمام أحمد في تلك الفتنة حرا داعية، ولذلك أبى الهجرة وأقام ببغداد، ورفع الراية، فكان الثبات، والتثبيت، فهزم جمع البدعة.

وهكذا شأن الحر الداعية دوما، الصبر على العيش والمقام في بلده، ليلتقط من مجتمع مستخذ فتياناً صباح الوجوه، لم يصب قلوبهم وأبدانهم شيء من دنس الجاهلية وأمراضها وحرامها، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الإسلام، ويجعلهم صفوفًا.

ولهذا فإن المهاجر مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه، أما السكوت فأبعد عن الصواب، ومن هنا لا يكون المؤمن العامر القلب إلا متحرّكا محرّكا.

إنما تقدسنا الدعوة : قال الغزالي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد).

قال أبو هريرة: **لأن أرابط ليلة في سبيل االله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود. ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان: أرض يكون فيها أطوع الله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال،** وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان: هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: **إن الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس العبد عمله.**

يقول ابن القيم (**ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة**، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعباون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما **الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة الله ورسوله وعباده، ونصرة االله ورسوله ودينه وكتابه،** فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، **وأقل الناس ديناً، وأمقتهم إلى االله: من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها،** وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، يبذل عرضه في نصرة دينه)، ويقول (والنبي صلى االله عليه وسلم كانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند االله قدرا)، ولك فيه صلى االله عليه وسلم أسوة وقدوة.

المفاهيم الرئيسية :

1- افتضاح الجاهلية والحاجة إلى الإسلام.
2- جاذبية وقدرة الدعاة واجتماعهم صفا.
3- إن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم.
4- ارفع للخير راية، والمبادأة لازمة.
5- الهجرة المفضولة : يصبر على العيش والمقام في بلده، ليلتقط من مجتمع مستخذ فتياناً صباح الوجوه، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الإسلام، ويجعلهم صفوفًا.
6- المهاجر مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه، أما السكوت فأبعد عن الصواب.
7- إن الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس العبد عمله.
8- لأن أرابط ليلة في سبيل االله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود.
9- عز الإسلام في الأمر والنهي والرباط والجهاد ونصرة دين الله : وهي وظيفة الداعية.

12- معادلة يفهمها الرجال

العديد من مخضرمي الدعاة انشغلوا بالعمل فلم يكتبوا الكثير ولكن الله ألهمهم أن يوجزوا ويجمعوا مذهبهم في كلمات قليلة، لكنها تكتسب أهميتها من كونها تقيم علاقة وارتباطا بين جزئيات إسلامية على وجه يضخم حجم هذه الجزئيات تضخيما تغدو به عظيمة الأثر.
لقد أقاموا أشكالا من العلاقات بين الآداب والأوامر الإسلامية كشفت عن درب واسع لمن يريد أن يسير، وحددت العوامل الحاسمة ونقاط التأثير، فإن **معادلات الدعوة لا يفهمها ولا يدرك قيمتها إلا داعية ذاق وتحمل، ويظل بمنأى عنها وعن فقهها من قبع وتعلل.**

إنكار المنكر دليل الفراسة : سئل عن الفراسة الإيمانية ما هي؟ فقال: **نظر الصالح، بالصلاح الذي فيه نور التقي والإيمان والحقائق والصدق، بالزهد في الدنيا، والرغبة في العقبى، فينكر على أهل المنكر منكرهم.**

إنه يمد إصبعه يشير إلى الطاغوت بالاتهام، ويرفع صوتا يعلن فضيحة الكفر الذي أمامه، باسمه، ورقمه وعنوانه، ثم لا تلبث الإصبع الواحدة حتى تنفتح معها بقية الخمس، **فتكون يد التغيير من بعد إصبع الاتهام.**
إن دور فقه الدعوة دوما أن يضع الوصف الصحيح، باللفظ الصريح، للعمل الفصيح.

<u>روعة الفقه الحركي تكمن في الأمانة والاجتهاد</u> : فإنه لا يليق أيضاً بالمتأخر ممن يفتش للدعوة الإسلامية عن معادلاتها الجديدة أن يتطاول على من سلف من فقهاء الأمة وقادة الدعوة، ولا أن يتنكر لهم، ولا أن يدلس على من يخاطبهم، بل يجب عليه أن يكون وفياً أميناً، فيذكر نص حروفهم حيث أغنت وكفت للتعبير عما يريد، ويكون له دور الإحياء، والربط، والتحليل، وإبراز المهم، وشرحه، وبيان حصول الإجماع فيما أجمعوا عليه.

لا تخف الاجتهاد والرأي الجديد، فإن فقه الدعوة لا ينمو إن حرصت على التعميم الذي يبقيك في دائرة ما لا خلاف فيه، ولكن **تصلب في منهج البحث** لا تتسامح فيه، **واحرص على الأصول لا تدع مستعجل السير أو هياب الصراع أن يتلاعب فيها**، فيخرج إلى نوع تهور أو تخذيل، ولا من استفزه الرعاع أن يسارع إلى تكفير.
لقد كان دور **سيد قطب** كبيرا في توضيح وتحديد المنهج التربوي الحركي، ودور **عبد القادر عودة** في تحديد المنهج التشريعي، من بعد اليقظة الإسلامية التي أوجدها **الإمام البنا** في تعميماته ومهد لهما بها، والتثبيت الذي قام به **الهضيبي** بصلابته في موقفه.

ترى أتعود الحركة الإسلامية إلى التبسيط والتعميم خروجا من المتاعب، وأمانة من المخاوف، أم تمضي شوطا أبعد في التفصيل، وتتحمل ضريبة هذا التقدم والانتشار.

فإن لم تقدم هذه البحوث اجتهاداً جديداً فإنها لا تخلو من تعبير يزيد الوضوح، أو اصطلاح يخصص الدلالة، أو فتوى فقيه قديم مهاب يبين أصل ما نظنه جديداً، إضافة إلى قصص الحماسة، ومجاز الخطاب، نعم العلاج اللطيف، فيه التجلية، والترقيق، والتصفية، والإشعال.

<u>نبدأ بالمنكر الأكبر</u> : وهو منكر الحكم بغير الإسلام، والأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية االله وحده سبحانه، وتحقيق قيام المجتمع المسلم، والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهي عن المنكر الأكبر، وهو حكم الطاغوت، وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة االله، فالنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة لم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم، في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل، ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يدرك وفق مقتضى الواقع، فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم.

وهذا لا يعني أن يمتنع الدعاة عن تعليم أنفسهم وتعليم من معهم آداب الإسلام وأحكام العبادات، ولا النهي عن منكر فرعي يمكن إزالته بهذا النهي، لكنها **دعوة واضحة لعدم خداع النفس وتلهيتها بالاكتفاء بالنهي عن المنكرات الصغيرة والعزوف عن منكر الحكم بغير الإسلام، والقناعة برتبة الوعظ في مباحث إزالة النجاسة وسجود السهو دون الجهر بالحق، والإشارة إلى الطاغوت، وتجميع المسلمين، وتربيتهم، وتنسيق جهودهم وتوجيهها للنهضة الشاملة.**

لقد أدى رسل الله الأمانة وبلغوا الرسالة، وبقي الواجب الثقيل على من بعدهم، على المؤمنين برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، وهناك ضلالات، وأهواء، وشبهات، وشهوات، وهناك قوى عاتية طاغية تقوم دون الناس، ودون الدعوة، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة. **إنها فريضة لا حيلة في النكوص عن حملها،** فمن ذا الذي يستهين بهذه التبعة التي تقصم الظهر؟.

<u>هو شأن الرجال</u> : قال بعض السلف: **يا له من دين لو أن له رجالاً**. فالإسلام لا يريد أناساً الفقه والزهد من صفاتهم وحسب، لكنهم **دعاة، همهم هداية الخلق، وإنفاذ حكم االله، والإنكار على من يحكم الناس بهواه.**

قال العمري الزاهد: "إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن االله، أن ترى ما يسخط االله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه ولا تنهي عنه، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً".
وقرّع ابن تيمية الخائفين من الصالحين فقال: "هؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله الله"، (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ...).

المفاهيم الرئيسية :

1- أهمية تدوين الخبرات واستخراج القديم منها.
2- معادلات الدعوة لا يفهمها إلا من ذاق وتحمل.
3- إنكار المنكر دليل الفراسة والوعي والإيمان.
4- أهمية الأمانة والاجتهاد لا التبسيط والتعميم والجمود عليهما.
5- نبدأ بالمنكر الأكبر : حكم الطاغوت وعدم تطبيق الشريعة.
6- ياله من دين لو أن له رجالا : التربية بعد الانتقاء، ثم الإنكار والجهاد.

13- الميثـــــــاق

كل سطر إلى زوال، إلا هذا القرآن فإنه خالد، وكل نتاج عقول البشر في تغير وتبدل دائمين، إلا نتاج عقل يقتبس من مشكاة القرآن، فإنه يقتبس شيئاً من ذلك الخلود والاستقرار والثبات.
إن عرض الأقوال المتشابهة التي فاه بها السلف والخلف من فقهاء الأمة، وإن كان يكرر المعنى والمبنى، فإنه من جانب آخر ينبه على وحدة المنهج والفهم والأداء، وفيه الإشارة إلى أصالة الخلف، وعراقة مذهبه.

صراحة الإسلام لا استفزاز الظروف : سئل حذيفة رضي االله عنه عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه".
وهذا هو وضوح الدعوة الذي يفرض نفسه، ولذلك نرى المعتنق لها بصدق سرعان ما ينشأ نشأة أخرى غير التي كان عليها تماماً، وتتحور مفاهيمه، ويخرج من صومعته ليقود الناس كالتابعي وهب بن منبه اليماني، لما أسلم وسئل عن صفه المسلم قال: "**يقتدي بمن قبله، وهو إمام لمن بعده**".

البيعة القديمة الحديثة : قال االله تعالى "وإذ أخذ اللَّـه ميثَاقَ النَّبِيين لَما آتَيتُكُم مّن كتَابٍ وحكْمة ثُم جاءكُم رسولٌ مصدّقٌ لِّما معكُم لَتُؤْمنُن بِه ولَتَنصرنَّه قَالَ أَأَقْررتُم وأَخذتُم علَىٰ ذَٰلِكُم إِصرِي قَالُوا أَقْررنَا قَالَ فَاشْهدوا وأَنَا معكُم من الشَّاهدين".

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية "**ما بعث االله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه**". **إذن، فالبيعة علينا نحن الآن من ورثة محمد صلى االله عليه وسلم أوجب وأظهر إلزاماً وأولوية**.

واعتمادا على هذا الميثاق القديم فهم ابن تيمية: "أن الصادقين في دعوى الإيمان **هم المؤمنون الذين لم يعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين**".

لا مناص ولا فكاك من تأييد الدعاة : ومن لم تسعفه ظروفه أو كفاءته أو مقدار علمه في أن يكون داخل الصف المجاهد فإنه لا يعذر بالقعود، بل عليه أن يعين من يأمر وينهى ويجاهد، ويكون مؤيدا مساندا.

خصص الفقيه الإمام الشاطبي من فروض الكفاية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم، والولاية والإمامة، أي الخلافة وطلبها، وسياسة الناس بالشرع، وبين رحمه االله أنها وإن سقط وجوبها عن غير القادر عليها، فإنه مطالب بالتفتيش عن القادر وحثه وإعانته على القيام بها، بل إجباره على القيام بها، **فالقادر إذن مطالب بإقامة الفرض، وغير القادر مطالب بتقديم ذلك القادر**، إذ لا يتوصل إلى قيام إلا بالإقامة، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وهذا كلام صريح لا يعذر أحداً من المسلمين في قعوده عن تأييد الدعوة الإسلامية مهما كان له من ظروفه العائلية والصحية والوظيفية والدراسية وأمثالها عذر يمنعه من الانتساب الفعلي.

لذلك أوجب عبد القادر عودة رحمه الله على الجماهير في كل وقت أن تؤيد الحركة الإسلامية الآمرة بالمعروف، **وحمل الجماهير مسؤولية تسلط أعداء الإسلام، فهي برضاها بما تفعله الحكومات فإنها تشارك في خنق الإسلام، وهدم الجماعات العاملة للإسلام.**

قمة الوعي يرتقيها الإمام البنا : وقد فاصل الإمام البنا المتذبذبين والمضطربين وصارحهم فقال: **"إن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة، فإن كتيبة االله ستسير غير عائبة بقلة ولا بكثرة، وما النصر إلا من عند االله"**. فبيّن مفاصلة الأسلوب ومنهج العمل مع الواهمين ممن يعمل للإسلام، وهي غير مفاصلة العقيدة مع أهل الكفر والبدعة.

كذلك أوجز سمت الجد العام لمنهجه في العمل فقال: **"إن رواسب القرون الماضية، ونتائج الحوادث الخالية، لا يمكن أن تزول بأمنية تختلج في الصدور، أو كلمة تكتب في الصحف، أو خطب تلقي على الجماهير، بل لا بد من طول الأناة، ودوام المثابرة، وعظيم المصابرة، والدأب على العمل"**.

"لا بد من أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام، وتطبق نظامه الاجتماعي، وتعلن مبادئه القويمة، وتبلغ دعوته الحكيمة للناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي االله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم في إيجادها".

"أما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد، والتشريع الفعلي والتنفيذي في واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية، لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف".

وتعتبر سيرة الإمام العملية، وبناؤه للحركة الواسعة المنظمة، خير شرح يفهم منه العاملون مذهبه في العمل الجماعي لتحقيق قيام هذه الدولة.

المودودي يشرح المراحل : وهو يوجب على الجماعة الحركية **أن تلتزم بتربية :**

1) **"مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام، وتوائم طبيعته".**
2) **"ثم تلح الجماعة على نفسها في تربية أفرادها على هذا الأساس لتنتج دعاة يقومون بمهمة نشر الفكرة".**
3) فإذا ما سارت الحركة شوطاً في هذا المضمار التربوي والتبشيري تدخل مرحلة الصراع مع الفكر **"مرحلة مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الإنساني".**

4) وخلال هذا الصراع **"يمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع من المصائب والشدائد، ويقاسون الآلام والأهوال، ضرباً وقتلاً وإجلاء عن الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر، وجلد، وإخلاص، وعزم قوى، ويبتلون بالشدائد، ويفتنون".**
5) ولكن ثباتهم يؤدي إلى **احتدام صراع معاني الحق والباطل في نفوس أفراد المجتمع الذي يرقبون ثباتهم،** ويصل الصراع إلى أوجه وذروته في نفوس بضعة أفراد كل يوم جديد، فيقررون بشجاعة الانحياز إلى جماعة الدعاة الثابتين.

وإنها لمسيرة طويلة ومهمة صعبة يهوّن منها إخلاص وعمل وجهاد وصحبة طاهرة نقية.

المفاهيم الرئيسية:

1- أصولية المنهج الإسلامي وثبات قواعده هي الإبداع.
2- ميت الأحياء من لا ينكر المنكر، ولا يقود الناس إلى الله.
3- البيعة القديمة الحديثة (وإذ أخذ الله ميثاق ...)، وهي أوجب علينا.
4- لا عذر في القعود عن إقامة فرائض الكفاية والدين، أو المساندة والنصرة لمن لا يستطيع ذلك.
5- مفاصلة البنا للحكومة وللجميع في وجوب إقامة دولة إسلامية تقيم الدين.
6- مراحل الحركة عند المودودي : تربية على الإسلام بشموله – دعوة وتجنيد – صراع مع الباطل – ابتلاء – استمرار الصراع حتى النصر.

14- صفة جيل التأسيس

حقيقتان بازغتان تصفان الداعية المسلم دوماً، وفي ظلالهما يعيش سعيداً: **أنه لا الأرض تحده، ولا العذاب يرهبه (وهما الوجهان الآخران للحرية والأمل).**
إنه يعمل أني هاجر وطرد، **لا يعشق تراباً، ولا يضيق ضمن حدود، ويتآخي مع كل بني الإسلام،** فإن لم تكن الهجرة وكان السجن، كان سجنه سياحة لروحه وفكره، وإذا شنق كان هبوط الحبل به علواً ينقله إلى منزل جميل كريم.

الداعية المؤمن ينظر إلى غالبه من علٍ، ويستيقن أن للإيمان كرة لا مفر منها، وإذا مات فموته شهادة، أما غالبه يغادر الدنيا إلى النار، وشتان شتان.

درس من القاضي الزبيري : وتاريخ الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً حافل بالأمثال، ومنها قصة الداعية القاضي محمد محمود الزبيري رحمه االله، والذي وثب للإصلاح ليحفظ اليمن في يد الإسلام، لكن شاء االله أن يهاجر طريداً متنقلاً في البلاد، ثم عاود الكرة وصمم على المنادة بالإسلام في فترة العمل، فأسس الحزب الإسلامي في اليمن يوم كان وزيراً للمعارف والتربية بعد الثورة في الستينات، فتلقى رصاصات في صدره نقلته إلى ما نحسبها شهادةً له.
وللدعاة في عهودهم سمت أخذوه عن الزاهد جعفر الخلدي البغدادي، وسنة في الوفاء ابتدعها لهم (**ما عقدت لله علي نفسي عقدا فنكثته**).

حرص على البيع : أكد الزبيري سنة الدعاة في الحرص على الموت، والتي لقنها خالد بن الوليد رضي االله عنه لمن بعده حين قال للفرس: (**قد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة**). وقال عبد الله بن المبارك (**وبيع نفسي بما ليست له ثمنا**).

لا تشتغل بترهات : يقول الزاهد رويم (**هو بذل الروح وإلا فلا تشتغل بترهات**)، والأمر كذلك والله.
لا تعود هذه الأمة إلى إسلامها إلا بدعوة تؤسس ابتداء على بذل الروح، وإلا فإن الأماني مما دون ذلك، والتعويل على احتمال سماع أئمة الكفر لوعظنا، واللغة الدبلوماسية، لا تعدو أن تكون ترهات فحسب.
يقول ابن الجوزي (**أول قدم في الطريق، بذل الروح، هذه الجادة، فأين السالك**)، ويقول لسان الدين بن الخطيب (**طريق القوم مبنية على الموت**)، ويقول داعية بسيط من الرعيل الأول (إن قطرة الدم لا زالت غالية على المسلمين، وما دامت قطرة الدم غالية فإنهم لن يصلوا إلى شيء، **لأن ثمن العزة والحرية قطرة الدم فقط**)، ويقول وليد الأعظمي (**هو الإسلام تضحية يريد**).
ويجمل داعية فقيه في فتوى فقهية واضحة حول بذل النفس فيقول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفائي يجب أن يكون في الأمة، فلا يسعها

تركه، (وإن لم تتم فيه الكفاية أصبح فرض عين على الجميع كما في زماننا)،ولكن إذا كان الحاكم ظالماً باغياً لا يتسع صدره لسماع النصيحة إلى درجة أن يقتل من يأمره وينهاه، فمن المندوب إليه، بالنسبة للفرد، القيام بهذا الفرض ولو أدى ذلك إلى موته، يدل على ذلك الحديث الشريف "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق لسلطان جائر فقتله"، فيفهم من هذا الحديث أن من المندوب إليه: قيام الفرد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو أدى ذلك إلى قتل الآمر، ولا يعترض علينا بأن إلقاء النفس في التهلكة لا يجوز، وهذه تهلكة، (لأن التهلكة في الآية هي ترك الجهاد والنفقة)، ولأن الاستشهاد في سبيل االله ليس بالتهلكة، وإنما هو ضرب من ضروب الجهاد، وما يترتب عليه من تقوية نفوس المحقين وخذلان المبطلين وإيقاف الظالمين عند حدهم، فحسن لهذه المعاني، **وندب الشرع إليه للفرد وإن خشي موته، وهو فريضة عليه دون ذلك.**

<u>المراحل الثلاث</u> : <u>قانون التربية الحركية للقاعدة الصلبة</u> : **غرس الاستعداد وشرح التبعة منذ البداية**. وهذا يستدعي من الداعية أن يكون على استعداد <u>لمراحل العمل الحركي</u> :

1- **الاستعداد النفسي لبذل الروح** وقطرة الدم عند الحاجة، فليست الدعوة جمعية خيرية تقنع بالقليل.
2- **والاستعداد للتعب اليومي**، فدون غاية الدعوة رحلة طويلة، وليست هي مجرد تصفيق في احتفال أو استحسان لمقال.
3- **والاستعداد بإنفاق السرور، وتحمل ثقل مصائب الأمة**، ابتداء بقضية فلسطين، وانتهاء بمآسي التنصير في إندونيسيا، ومذابح المسلمين في البنغال والفليبين وغيرها. وقد ذكر مثلها أحد الوعاظ فقال (في البداية إنفاق السرور، وفي التوسط إنفاق النفس).
4- **إنفاق ما بعد النفس**، وكأنها صورة الشوق الشديد إلى الحوريات السبعين، فهو اجتماع الشوق بدرجة تنسي الداعية طعم الراحة، ولذة الطعام، وأنس الزوجة، **وتجعله هائما راكضا بلا التفات**.

يتضح مما سبق **<u>الوصف الحركي الحديث للمرحلية: المتدرجة المتناسبة مع الواقع المحيط، المنسابة مع انسيابية سير الحاضر نحو المستقبل، وانسيابية الاقتران الكامن فى فقه الدعوة بين تفقهنا الشرعى وخبرتنا التجريبية.</u>**

حديث من استراح : استخدم الإمام أحمد مصطلح (أصحاب العقول المستريحة) مع الذين لا يفهمون لغة الدعاة ومواقفهم في الحق (دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي: يا أبا عبد االله: عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور. فقال لي أحمد بن حنبل: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت)، **وأما من لذع واقع الإسلام قلبه فأنّى له الراحة، وهل الموت إلا في آجال.**

إن عهد الدعوة لن يقدم أجلا لكنه يرفع إلى الفراديس، فإن لم يكن المسلم مع أحمد، أو مع ورثة أحمد اليوم، وقعد لعذر أو شبه عذر، فإنه مطالب بالأسف وازدراء نفسه على الأقل، ألا يكون مع القوم العاملين الصادعين بالحق.

قال بشر الحافي في يوم تعذيب أحمد (ما أقبح هذا الساق ألا يكون القيد فيه نصرة لهذا الرجل).

إما جهاد وتعاهد على إرخاص قطرات الدم، وإما أن تلفظهم الحياة، ويستبدل الله بهم آخرين، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ولا يغريهم جمال نساء ومال، ولا يرهبهم طغيان طاغية، ولا استئساد جاهلية.

هذا أو لقب ذي العقل المستريح، هذا ... وإلا فإنها الترهات.

المفاهيم الرئيسية :

1- الداعية المجاهد لا تحده الأرض (حر)، ولا يخاف العذاب (الأمل).
2- نماذج عديدة منها القاضي الزبيري، وجعفر البغدادي (ما عقدت لله علي نفسي عقدا فنكثته).
3- حرص على البيع : هو بذل الروح وإلا فلا تشتغل بترهات.
4- بذل النفس في الصدع بالحق والإنكار واجب (فرض كفاية أصبح عينا في زماننا)، سيد الشهداء.
5- قانون التربية الحركية للقاعدة الصلبة : غرس الاستعداد وشرح التبعة منذ البداية وأنواعه الأربعة.
6- الوصف الحركي الحديث للمرحلية المتدرجة المتناسبة مع الواقع المحيط ....

7- أصحاب العقول المستريحة : إن عهد الدعوة لن يقدم أجلا لكنه يرفع إلى الفراديس، إما جهاد وتعاهد على إرخاص قطرات الدم، وإما أن تلفظهم الحياة ويستبدلهم الله.

15- الاتساع الموزون والانتشار المتأني

أول ثمرات العزة الإيمانية التي يحسها المؤمن إدراكه ما في الإسلام من قوة الحقيقة التي يكفي أن تتمثل في فرد واحد (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا)، وفي البخاري (يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك)، أما حديث (طوبى للغرباء) فهي غربة بالنسبة للواقع لندرتهم، وللمؤمن أنيس ورفيق من إيمانه يبعد الغربة.
ليس علينا غير البلاغ : الداعية المسلم يعتقد بأن عليه تحري القول الصائب الموافق للشرع، واتباع الأسلوب الملائم حسب اجتهاده، ثم الله هو الذي يتولى ما بعد ذلك، فالدعاة إلى الله أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير.

نريد أن نكون أئمة : وإنما ذاك ما يقتضيه الإيمان، وإلا فإن في الفطرة ميلا إلى كثرة الأنيس، وحبا لتسلط الإيمان على الكفر، ولذلك يحرص الداعية على تعلم فنون الدعوة ليزيد عدد المؤمنين، (واجعلنا للمتقين إماما)، وليس هذا الدعاء من الاستشراف والتزعم وحب الظهور، بل هو يحب الإمامة في الدين، ويسأل ربه أن يجعله للمتقين إماما، يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين.

سعة التجميع تتناسب مع طاقة التربية : حب الإمامة في الدين يجب ألا يخرجنا إلى نوع تساهل في الصفات الإيمانية والطبيعية التي نشترطها لمن يريد أن يكون مع الركب، **ويجب أن يكون هناك تناسق وتوازن بين سعة التجميع وسعة طاقة التوجيه التربوي التي نملكها دائما،** بل يجب أيضا أن يبقي رجال الصفوة بعض أوقاتهم لمواصلة تربية أنفسهم هم بالعلم والعبادة، وإلا قست قلوبهم من بعد لذة الابتداء.
هذا التوازن ليس خاصا ببداية الدعوة وإنما يجب أن يستمر في كل مراحلها وإلا تسرب الخطر.

إن المتولعين بالسياسة من الدعاة يريدون للدعوة أن تدخل في سباق مع الأحزاب لاكتساب رجل الشارع، في الوقت الذي أبان فيه رجل الشارع في البلاد الإسلامية كلهاعن طبيعته في قلة استعداده للسير الطويل مع جماعة معينة، **والدعوة الإسلامية لا تنتصر بمثل هؤلاء**، وما بمثلهم تغير مجرى الحياة.

<u>إن التجميع القطيعي ممكن لكنه لا يستمر طويلا.</u>

فضلا عن أن التجميع الواسع يحتاج إلى كفايات ضخمة تستخدمها الدعوة في الإدارة، وإلى قدوات عالية المستوى لإدامة بقاء التجمع في رحاب الحياة الروحية أثناء انغماس الجميع بكثرة الأحداث.

اتزان التوسع الميداني : كما يولد التساهل في الانتقاء، والتكاثر الذي يلهي عن التركيز، أنواع التورط والاندفاع العفوي غير الهادف، **فإن حماسة الدعاة في استدراك التقصير قد تقذفهم إلى مواجهة أهل الضلال في جميع الميادين والجبهات قبل الاستعداد الكافي**، فيحصل (**تشعب العمل**) و (**توزع جهود ذوي الكفاية**)، **فيقل التأثير في كل الميادين**، ويكون التعب والإرهاق المستنفد للطاقة، كمثل فتح جبهات متعددة في آن واحد في المعارك الحربية، فتكون الهزيمة.

ليس قولنا هذا دعوة للراحة، **فإن الراحة موت**، ولا لتحريم الاستفادة من فنون العمل التي برع فيها غيرنا من الجاهليين، لكننا **ندعو إلى تقدير واقعي لطاقاتنا، وتركيز لجهودنا، وتجزئة الاستدراك بملء المجالات حسب أهميتها**، والتاريخ القريب يرينا وقوع أجزاء من الحركة في مثل هذا.

<u>إن اتزان التوسع الميداني قرين اتزان التوسع العددي في الوقاية من المصارع.</u>

التطوير ينطلق من المعاناة : إن النقطة التي يغفلها المتحمسة من الدعاة تتجلى في أن القسط الأعظم من **فقه الانتقاء والتشدد المتولد عندهم، ومن صلابة النية والإصرار وعلو الهمة، إنما كونهما فيهم تفكير سنوات، وتفاعل قلبي عميق متوال مع أخطاء الماضي، ومعاناة يومية لعمل طويل**، ولا يمكن لفاقد هذا الفقه وهذه المعاناة أن يكون بمثل مستواهم عند التنفيذ.

إنها حقيقة واقعة، تنقل التخطيط عن المثاليات والارتجال إلى التدرج المتناسب مع الطاقة، **ومن الخطأ أن تطلب سيرة صلبة واعية لدعاة ضعفاء، ومجرد الإلحاح عليهم لا يكفي إن لم يسبق بتربية.**

التركيز على مصنع الثقات : **يجب التركيز على مصنع الثقات الذي يربي الدعاة المسلحين بالإيمان والفقه الحركي** وتكديسهم ليجابهوا الكفر في ميدان إثر ميدان، ولابد من أن ترصد الكفايات لخدمة الجهاز المربي للثقات وتمتينه وتقويته.

إن كل فتح لميدان جديد، أو واجهة، أو تحول إلى الانغماس في المعترك السياسي كلية، **فإن معناه حصول التصادم بين متطلبات الجهاز التربوي ومتطلبات الميادين الجديدة والنشاط السياسي،** المتسبب من قلة أصحاب المقدرة والكفاية، الذين يديمون تلبية هذه المتطلبات، ويديرون الأجهزة المختلفة.

لكن هذا لا يمنع من تدريب بعض الدعاة، وبعدد قليل، بالمشاركة في هذه الميادين عمليا، ليكونوا روادا موجهين في أيام الانفتاح.

الكتاب والبأس الشديد .. وإنه الحديد يكمل القرآن حقا : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ... وأنزلنا الحديد ...)، فهمها أبو بكر فكانت حروب الردة، وفهمها عمر الفاروق فكان الإقرار لمن لوح له بالسيف أداة تقويم إن زاغ واتبع الهوى.

ابن تيمية : ... **ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر** .. وإذا ظهر العلم بالكتاب والسنة، وكان السيف تابعا لذلك : كان أمر الإسلام قائما.

ارتقاء المدارج مع السالكين لا الطفرة : أوجب الامام البنا رحمه الله الابتعاد عن التهور: من خصائص هذه الدعوة كذلك التدرج في الخطوات، وانتظار الزمن، وعدم التسرع بالنتائج، فلكل أجل كتاب. وهو العلاج الرابع (الانتظار).

من تمام واجب التربية الإسلامية الحركية في مراحل الابتداء والتأسيس : غرس الاستعداد النفسي للانتظار، الذي تكمل أثناءه صناعة الاختصاصات التي تتولى الانتشار والتوسع الميداني، ثم ما يتطلبه هذا الانتظار الإيجابي من الإقلال المرحلي في ولوج السياسة.

إنه الطريق التربوي : صعب .. طويل .. بطيء .. لكنه مأمون ثابت مضمون.

إن التضحيات مطلوبة، ولكن في وقتها، ولا تؤتى مفتعلة، وخير الدعاة من بذر بذورها في نفوس إخوانه من الآن.

<u>**خطوات الطريق**</u> : **أن تشيع الوعي الإسلامي، وتجمع، وتربي، وتتوسع في اتزان، وتنتشر في تأن، وتنتظر حتى تكمل الاختصاصات، وترقب ضعف من تسلط زورا، وترفع يدك إلى الله داعيا حتى يسقط رداؤك عن منكبيك فإنه إن سقط علوت.**

أهمية الوعي الحركي في التعجيل : يمكن اختصار الفترة بواسطة الإلحاح في نشر الفقه الحركي وترويجه وإيصاله إلى أصحاب الإخلاص ممن سلم زمامه للدعوة والدعاة، لكن ينقصه الفقه الحركي.
من أبرز التقصيرات المأخوذة على الحركة تقصيرها في تدوين أوليات الوعي الحركي وفقه الدعوة، فيجب الاستدراك بالتأليف فيه، وبجمع المتناثر منه، وبالتفتيش عما تملكه أجزاء الحركة الأخرى، وتنسيق تدريسه وتعويد الدعاة على أخذه مأخذ الجد لا تصفحه في مطالعات عابرة، من خلال منهج تطويري شامل.
المفاهيم الأساسية :
1- المؤمن يكون مؤمنا وحده فيأنس بعزة إيمانه، والغربة هي عن الواقع بالندرة.
2- ليس علينا إلا تحري القول الموافق للشرع، والأسلوب الملائم ثم الله يتولى النتائج.
3- (واجعلنا للمتقين إماما) لا استشرافا ولا زعامة، ولكن قدوة وعملا.
4- سعة التجميع تتناسب مع طاقة التربية : في كل المراحل.
5- إن التجميع القطيعي ممكن لكنه لا يستمر طويلا : قاعدة هامة.
6- اتزان التوسع الميداني : بتقدير واقعي للطاقة، وتركيز للجهود، وملأ المجالات حسب الأهمية.
7- التطوير ينطلق من المعاناة.
8- من الخطأ أن تطلب سيرة قوية لدعاة ضعفاء، ومجرد الإلحاح عليهم لا يكفي إن لم يسبق بتربية.
9- يجب التركيز على المصنع التربوي للثقات.
10- قوام الدين : كتاب يهدي وسيف ينصر.

11-من واجب التربية : غرس الاستعداد النفسي للانتظار الذي تكمل أثناءه صناعة الاختصاصات، والإعداد.
12-الخطوات الثمانية لإقامة الإسلام.
13-وجوب تدوين فقه الدعوة والحركة، ثم أخذه مأخذ الجد تربية وتطبيقا.

16- الانتقاء يقي المصارع

العقيدي له موازين محددة، يزن ويقيس ويمحص ويستنتج قبل أن يخطو، والفائر يغضب ويندفع، ويسرع ويستعجل، فيتورط، ولهذه الصفات الفردية أصداء وانعكاسات في المجموع، فالمجموع يندفع اندفاعات عفوية بإلحاح من أعضائه، فتتبدد القوى، ويكون الفشل.

صعود الثقات رأس الوقاية : وأول الحلول يتمثل في **تواصي قادة الحركة وجنودها بسمت من التشدد في تسليم مراكز التوجيه داخل الحركة، وتأمين صعود الثقات إليها**، من أصحاب الإيمان والعلم والعمل.
وكذلك فإن **صعود الثقات إلى مراكز التوجيه هو الذي سيؤمن وضوح الأهداف البعيدة** في أذهان المخلصين المندفعين من جنود الدعوة الجدد الذين لم تعركهم التجارب، **وهو الذي سيؤمن تفسير السياسات المرحلية لهم وإيضاح مسوغاتها**، وفي كل هذا مساهمة أكيدة في التأمين ضد الإندفاع المستعجل، وضد الاندفاع غير الهادف.
والدعاة من خلال التساهل تعلموا التشدد، ومن معاناة التعامل مع الضعفاء تعلموا الحرص على الانتقاء، وليس مثل العلم التجريبي مصدر وعي.
وهناك نوع آخر ما هو بتساهل، ولكنه **ضرب من المجازفة في الاعتماد على السذج الذين ينقصهم أسلوب العصر**، ويعوزهم الوعي السياسي، وإنه لهمّ طويل، يعرفه ويميزه المنغمس في العمل اليومي الحركي.

لا نفصل بين الإدارة والتربية : **القدوة شرط لمن يشتغل في مراكز الدعوة التي ليس فيها توجيه تربوي مباشر أيضا**، فهؤلاء جزء مرئي من هذه الدعوة يقلده الجدد والأنصار، ولسان ناطق يسمعه هؤلاء فيتأثرون به، ولذلك لم يفهم السلف فصل وظيفة رجل الدولة الإسلامية عن التعليم والتربية، وكانوا يرون

أنه رجل تربية أيضا. إذن، فإن **جميع من يساهم في أعمال الدعوة إنما هو قدوة يحتمل تأثيرها، ويجب أن يحوز شرط القدوة العملية.**

دقة مركز القدوة : مركز القدوة حساس دقيق جداً، ويجب أن لا يوضع فيه إلا من كان **مستعداً للأخذ بالعزيمة، والبعد عن الرخص، ومن كان يغلب عليه الجد والزهد والتجرد، ويشتاق إلى التعب والبذل،** لأنه إمام لمن حوله يقلدونه، قال يحي بن سعيد للإمام الليث لما همّ بفعل مفضول (لا تفعل، فإنك إمام منظور إليك)، وقال الشافعي (من وعظ أخاه بفعله كان هادياً)، وقد قيل (من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه)، ويروي أنه قيل لعيسي عليه السلام **من أشد الناس فتنة؟ قال: (زلة العالم، إذا زل العالم زل بزلته عالم كثير).**
فلكل هذا كان من فقه الدعوة دقة اختيار من يكون قدوة، ولا تساهل في الأمر.
وبإيجاز (الأسوة وحدها هي علم الحياة). ودعوتنا هي الحياة، فالأسوة وحدها هي علم الدعوة، وعلم الدعوة كله هو الأسوة الصادقة.

اختبر عليم اللسان : في تاريخ الحركات الإسلامية الحديثة كان يحصل فيها انخداع بالخطباء، وأصحاب الشهادات العالية، والمشاهير، وكانوا يدفعون إلى الصدارة من دون طويل تجريب لهم، وتقع الدعوة في ورطة ربطهم باسمها، **ولا يلبث المعدن الضعيف أن يفضح نفسه أثناء ترغيب أو ترهيب أو سياسة حركية تقتضي فقها لفهمها، فيكون النكوص.**
إن الإيمان، وفقه الدعوة، وشدة الانغماس في العمل التجميعي والتربوي، ووضوح الطاعة، هي المحكمات التي يجب أن تتحكم في عملية الانتقاء والتأمير، لا شروط الوظائف الحكومية، وأعراف المجامع الادبية.
وللداعية في ذلك سلف، فإن عمر بن الخطاب رضي االله عنه لما خاف الأحنف بن قيس رضي االله عنه، وكان الأحنف متكلما لبقاً داهية، **أبقاه عمر معه في المدينة سنة يراقبه،** ثم قال له: يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإنا كنا نتحدث: **(إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم)**. وكتب عمر إلى أبو موسى الأشعري: أما بعد فأدن الأحنف بن قيس، وشاوره، واسمع منه.
يقول الحسن البصري: (**اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم**، فإن االله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسنا فَرويداً بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم، ونعمة عين، فآخه، وأحببه،

وأودده، وإن خالف قولاً وعملاً فماذا يشبه عليك منه أو ماذا يخفي عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك).
إنها الوصية القديمة، ولكن القلوب تغفل، وشهوة الوصول السريع، أو شهوة التكاثر بالأنصار، تلهي، وتدعو إلى التجاوز عن العلم الموروث.

البدعة ضعف أيضا : يدعوا أدعياء وحدة الأمة في هذا العصر إلى التجاوز عن معاني البدعة، وسري هذا الوهم إلى بعض الدعاة، وأسقطوا أمر البدعة كعامل من عوامل التمييز، فوقعوا في الخطأ.
قال الفضيل بن عياض: "**من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام**".
وقال أيضاً "**من أحب صاحب بدعة: أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه".** إن الدعوة للأخذ بيد المذنب والعاصي في تصرفاته السلوكية، إذا كان أصل الإيمان في نفسه، أهون بكثير من التعاون مع المبتدعة حال تمسكهم ببدعهم، والمذنب أقل ضرراً من المبتدع من وجوه، منها "**أن المذنب إنما ضرره على نفسه، وأما المبتدع فضرره على الناس".**

<u>**من فقه الفضيل في العمل**</u> : إن حذر العمل الجماعي الإسلامي من المبتدعة أصبح قاعدة تؤكد نفسها يوماً بعد يوم. وإنها لقاعدة قديمة، عمل بها الفضيل بن عياض، وأوجزها في كلمات رائعة فقال "**لأن آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة ... أحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد، وصاحب البدعة لا تأمنه على دينك، ولا تشاوره في أمرك**". وهذا القول القديم يؤكد على مبدأ التشدد في الانتقاء.

استر سمعة الإسلام : قال الزاهد الوزير العباسي ابن هبيرة الدوري السامرائي لبعض من يأمر بالمعروف: "**اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور: ستر العيوب".** ومن أهم أوصاف الستر الذي يطلبه ابن هبيرة أن تحرم أعداء الإسلام من فرصة الإشارة إلى مثل هؤلاء الضعفاء، والتشهير بالدعوة من جراء تصديهم لأمورها.
بل ينبغي ما هو أشد من هذا، فإنه من الواجب على الثقة أن يفوت الفرصة على الضعيف إذا جالسه بقصد أن يقال: جالسه الثقة فلان من الدعاة فهو ثقة، وإنه لو لم يكن ثقة لما جالسه.

ويجب على تنظيمنا الانتقاء والتخير للأذكياء الشجعان، ومنع الجبناء وضعاف الشخصية وقليلي الذكاء من دخول التنظيم، توفيراً للجهود التربوية، وإسراعاً في تحقيق الغايات، مع التعويض بتعاون معهم خارج عن الالتزامات الدقيقة.
وهذا المنع إنما هو باب من التقوى في أمر الدعوة توجبه المصلحة، وتؤكده التجارب، إن أمر الدعوة شديد لا يصلح له إلا الأشداء الأذكياء، فمنعنا تقوى وانتقاؤنا عزم.

أنت يوسف هذه الأحلام : إن تجمعاً لا ينتقي أعضاءه قد ينهار، لا بأول عاصفة يتعرض لها، بل بأول نسمة خفيفة تفجؤه، وهذا تعبير له تعبير، كما يقول الإمام البنا رحمه الله "**وأنت يوسف هذا الأحلام، فإذا راقك ما نحن عليه فيدك مع أيدينا لنعمل سويا في هذا السبيل، والله ولي توفيقنا وتوفيقك**"، فدع السلبية وبادر من فورك.

المفاهيم الرئيسية :

1- شتان بين العقيدي والفائر، والمجموع قد يندفع بإلحاح من أعضائه فيكون الفشل.
2- صعود الثقات رأس الوقاية – التشدد في التوثيق وفي القيادة لأسباب.
3- لا نفصل بين الإدارة والتربية في شرط التشدد والقدوة.
4- صفات القدوة : الأخذ بالعزيمة، الجد، الزهد، التجرد، العزم، العمل.
5- اختبر عليم اللسان : قصة الاحنف مع عمر – العبرة بالعمل لا بالكلام والقول.
6- شهوة الوصول السريع، أو شهوة التكاثر بالأنصار، تلهي، وتدعو إلى التجاوز عن العلم الموروث.
7- أربعة شروط تتحكم في عملية الانتقاء والتأمير : الإيمان، وفقه الدعوة، والانغماس في العمل، ووضوح الطاعة.
8- ترك أصحاب البدع : لا تأمنه على دينك ولا تشاوره في الأمر.
9- استر سمعة الإسلام : التوثيق غير المباشر بالخلطة، فرصة التشهير بالدعوة.
10- وجوب انتقاء المتميزين فقط توفيرا للجهود وإسراعا في تحقيق الأهداف (منعنا تقوى وانتقاؤنا عزم).

11-أنت يوسف هذه الأحلام فدع السلبية وبادر من فورك.

17- تركيز لا تكاثر

"أَلْهاكُم التَّكَاثُر" **فالإنسان يحب الثراء الكمي العددي، في المال، والعلوم، والبنين، والأنصار، وفي كل شيء،** وهي نزعة أو غريزة لا يمكن السيطرة عليها إلا بالتربية العميقة، وخطورة إهمالها تتأتي من أن **إشباع الغريزة يؤدي إلى حصول النشوة في الإنسان، والنشوة حالة من حالات النفس تؤثر على العقل تأثيرا سلبيا،** فتجعله في ركود، فالنشوة ضد الخوف، وتصاحب تلك النشوة اندفاعات غير مدروسة، يشترك فيها الجميع.

معارك النفس : إن ميدان المعركة هو النفس الإنسانية بكل تعقيداتها ومتناقضاتها، فأنت لا تتعامل مع أحجار صلدة، ولا مع أصحاب طهر ملائكي، وإن النفس الإنسانية هي ميدان كل هذه الانقلابات الاجتماعية والسياسية الكثيرة المتواصلة التي يحدثنا عنها التاريخ القديم والحديث، فمعارك السياسة والحروب صورة لمعارك النفس، **والتربية هي المقدرة على توجيه الآخرين نحو السيطرة على الغرائز وتوجيهها.**

ألهاكم التكاثر بالأمس، فاتزنوا : وإذن، فإن **معركتنا معركة تربوية،** أي أنها تقوى وتشتد كلما تعمقت التربية، وأتقن المربي عمله، وتخبوا جذوتها كلما فترت التربية، وكانت سطحية.
إن من صالح معركتنا أن لا يندفع الصنف القيادي المتولي لعملية التربية في تجميع عدد من الجدد أكبر مما تكفي له جهودهم التربوية، وهذا هو الحل الثاني للوقاية من مصارع العفوية يمليه تحليل الظاهرة التربوية.

ولقد شهد تاريخ الحركة الإسلامية بالأمس القريب تكاثرا بالعدد على حساب النوعية أرهق وألهى، وأجبر دعاة اليوم على الاتعاظ، وما اتزان التوسع إلا وصية الغد.
يقول الإمام البنا (أريد أن أكون صريحا معكم للغاية إن ميدان القول غير ميدان الخيال .... وفي قصة طالوت بيان لما أقول، فأعدوا أنفسكم، وأقبلوا

عليها بالتربية الصحيحة، والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل القوى البغيض لديها، الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها).

ويؤكد المعنى الأستاذ سيد (يجب ألا يشغلكم إقبال الجماهير عن تنظيم صفوفكم الداخلية، وإعداد رجال يواجهون الشدائد ويثبتون)، والحقيقة أن **أهمية الصف الداخلي المتين لا تنحصر في معطيات صفته التنظيمية وسهولة استثمار طاقاته المنسقة، بل في تحقيقه (المجتمع التربوي) الذي يحتضن الجديد المتربي** ويريه زيادة المناظر الإسلامية، ويحجب عنه رؤية الجاهلية والجاهليين وسماع أقوالهم، فيبعد عن التأثر بتربية أخرى غير إسلامية، يقول الغزالي (**إن مشاهدة الفسق تهوّن أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها**).
فإن بقاء بعض الفسق – بمعناه الشرعي- عالقاً بالأشخاص الذين تجمعهم، لعجز كفاياتنا وطاقاتنا التربوية التوجيهية عن إزالته عنهم وتحويلهم عنه لكثرة عددهم، سوف يؤدي إلى **احتمال سريان عدواه إلى العناصر النظيفة، لما في العيش الجماعي من المشاهدة التي تؤدي إلى التقليد**، وعلى ذلك فإن جولات الداعية الضرورية بين الجماهير تستوجب تردده على مجتمع الدعاة الصافي ليرى من مناظر الإيمان ما يضاد مناظر الفسق.
فكما أن التوسع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة، فإنه يضعف الناتج القديم.

دور التجمع في التربية التكميلية : يقول عمر بن الخطاب رضي االله عنه: "**اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر، وعجز الثقة**"، فيجب أن نعكف على توعية الأمين العاجز الساذج، وترقيق قلب ذي الجلادة الشغول المتهاون بأمر بعض الأعمال الإيمانية، **ولابد من تكميل صفة الجهاد في المؤمن، وتعميق إيمان المجاهد،** قال ابن تيمية "**عقد االله سبحانه الموالاة بين المهاجرين والأنصار، وبين من آمن من بعدهم وهاجر إلى يوم القيامة**، والمهاجر من هجر ما نهي االله عنه، والجهاد باق إلى يوم القيامة، **وإنما عقد االله الموالاة لمن جمع بين الوصفين**"**، وتمكين كل داعية من الجمع بين الوصفين، وتمكين الحركة الإسلامية من استثمار حسنات الطائفتين، مهمتان أساسيتان لتربيتنا الحركية**.

ليس من الجهد ما يهدر، وإنما النجاح قد يتأخر : وتضيق الأرض بمتحمسة الدعاة حين نلح في بيان اتزان التوسع في وقت طال فيه المسير، ويرون أن هناك ثمة فشلاً يصيب الدعوة إن تخلت عن سباق العدد، ولا ننكر أن أخطاء الماضي قد حرمت الدعوة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي من فرص توسع، **ولكن الخطأ لا يستدرك بمثله،** فالدعوة طالما كانت سبباً في هداية آلاف من الشباب وعصمتم من الفجور والزيغ وإن لم يدخلوا صفوفها، لأسباب مختلفة، وإن أقعدهم الترغيب والترهيب عن مواصلة السير معنا، ولكن هذا في ميزان الإسلام عظيم.
إن أناسا كثيرين، بتأثير عمل الدعاة الماضي والحاضر، تحتدم في نفوسهم معاني الإيمان والجاهلية، هم الآن في صراع نفسي داخلي عنيف غير منظور، أيؤمنون ويقرون بما يقول دعاة الإسلام أم يبقون على ما هم عليه، وهؤلاء مصيرهم إلى الإيمان حتماً حين يتضح الحق أمامهم اتضاحاً كافياً، في حادثة تهزهم هزاً، تماما كالإسلام المفاجئ المأثور عن بعض الصحابة رضي االله عنهم، كعمر حين دنا من الصفا، فسمع أخته تتلو القرآن، فصفا، أو حمزة حين رجع من الصيد، فسمع كلام المؤامرة على رسول االله صلى االله عليه وسلم، فآمن وكسر القيد، ولم تأت كل أسباب الإيمان في لحظة، بل كانت معاني الإسلام تحتدم في نفوسهم، حتى فاض سيل الخير في هذه اللحظة.

وحرصنا اليوم على **عمق التربية، واقتصارنا على الصفوة، واتزان التوسع،** فللوفاء بحاجة جحافل أهل الاحتدام، وإنهم لفي سير إلينا، وعما قريب يكون الوصول إن شاء الله.

المفاهيم الرئيسية :

1- (ألهاكم التكاثر) ونشوة العدد تؤثر سلبا باندفاعات غير مدروسة.
2- ميدان المعركة هو النفس الإنسانية بكل تعقيداتها وتناقضاتها.
3- إن معركتنا معركة تربوية – توازن التجميع مع القدرة – قصة طالوت.
4- أهمية الصف الداخلي المتين لا تنحصر في قوته ونتائج عمله، بل في المجتمع التربوي الذي يوفره.
5- التوسع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة، ويضعف الناتج القديم.
6- تربيتنا تعالج عجز الثقة : إيمان، وهجرة، وجهاد، وولاء.

7- ليس من الجهد ما يهدر، ولكن النجاح قد يتأخر : حرصنا اليوم على عمق التربية، واقتصارنا على الصفوة، واتزان التوسع، فللوفاء بحاجة جحافل أهل الاحتدام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس